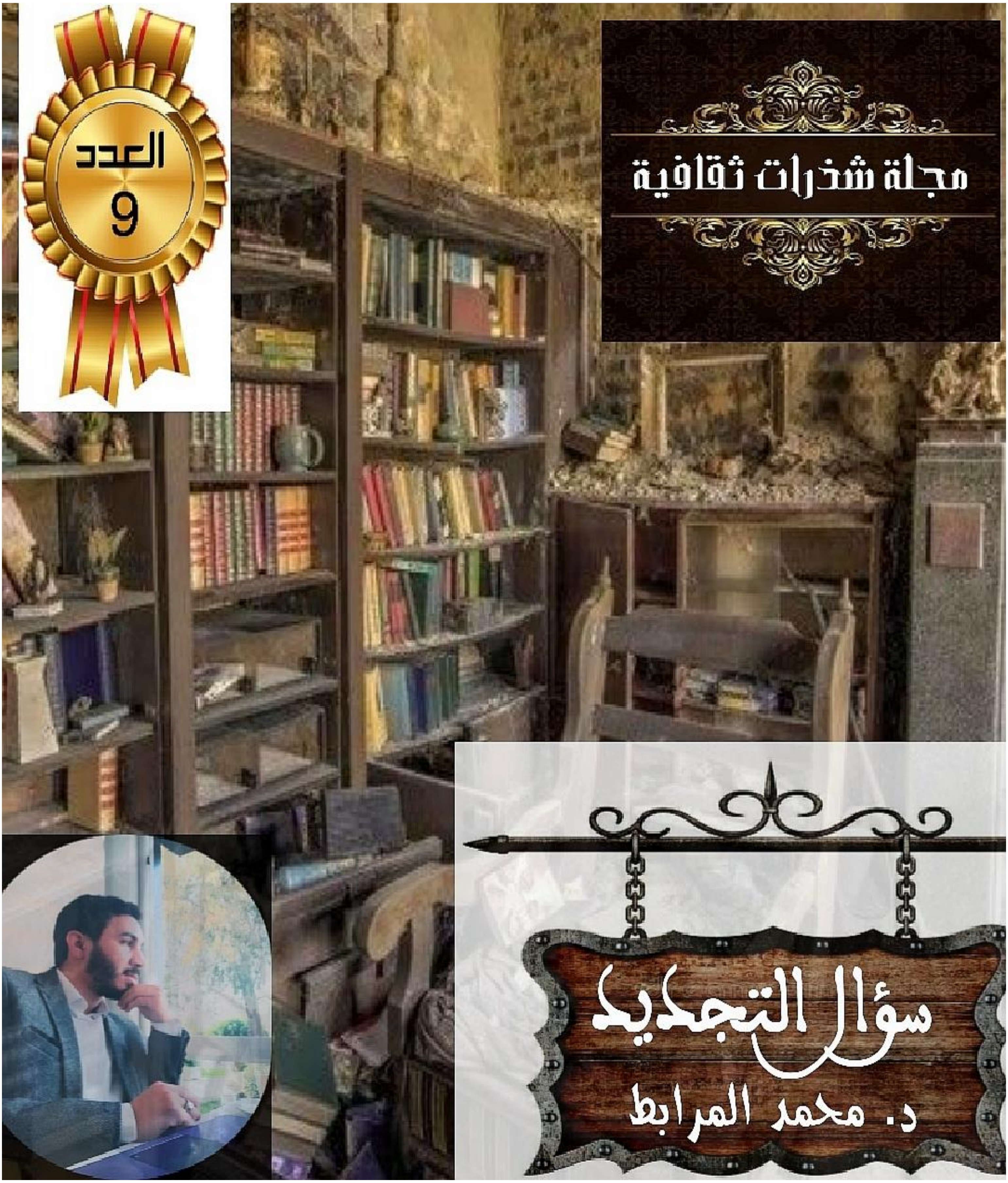

مجلة
شذرات ثقافية
9
مجلة شهرية تصدر عن مجموعة شذرات ثقافية
سؤال التجديد
قياس مقدار فوضى التشابك الهولوغرافي وحل معضلة ضياع المعلومات في الثقب الأسود
الموت والحياة
الأنماط الفلسفية الكبرى
القانون الثاني فى الديناميكا الحرارية
رمضان تجليات ونفحات
استصحاب التوبة فى رمضان
حقيقة صوم رمضان بين المفكرين والفلاسفة
رمضان شهر الإرادة والتغيير
قراءة فى فتاوى الصيام لمحمد رشيد رضا
احتضار فيلسوف
القرآنيون والصيام
أيتها الشعوب كونى كمريم فى تقديس القيم


مجلة شذرات ثقافية
العدد
9
سؤال التجديد
د. محمد المرابط

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال التجديد

مدخل عام لمعرفة المنهج والأعلام

محمد المرابط

أستاذ الفلسفة وباحث في الفكر الإسلامي

يعتبر موضوع التراث والتجديد من المواضع التي لها حضور كبير في الفعل الفكري الإسلامي المعاصر، حيث أصبح محور اهتمام المفكرين، والعلماء، والمثقفين ...على اختلاف "فكر انياتهم" ومرجعياتهم؛ فكتبت كتب، ونحتت مفاهيم واستصحبت مناهج واستصلحت، كما نقلت أخرى واحتطبت.

وإذا تأملنا في من اشتغل و انشغل بهذا الموضوع نجد أنهم مختلفون في المناهج والمنطلقات والمقاصد، وبهذا يعرف الفعل الثقافي العربي الاسلامي تيارات متعددة، ومختلفة، لكني سأقف مع تيار وتوجه واحد دون الباقي، باعتباره مصلحا ومجددا اصيلا متأصل المنهج والفكر والمقصد، وهذا التوجه له فكر انيته وتكوينه وتصور اته الإسلامية الخالصة.

لقد درس أصحاب هذا التوجه التراث الإسلامي باعتباره تراث الهوية، والروح الإسلامية الخاصة، وله أسس لغوية وفكرية وروحية تميزه عن غيره، كما أنه عمل بشري وليس وحيا يوحى فالوحي عندهم مقدس (القرآن والسنة) من حيث الثبوت والورود، الأمر الذي جعل

أصحاب هذا التوجه يدخلون ساحة التجديد بأسلحة محلية الصنع وبأساليب التراث الإسلامي، القديمة الجديدة، وبروح العصر. بناء على الأرضية المميزة لهم والمختلفة تماما عن أرضية غيرهم.

هذا التوجه أحدث أصحابه ثورة أخلاقية فكرية سياسية أدبية بكل المقاييس، وإن اختلف أصحابه في معالجة القضايا الجزئية، أوغيرها، فإنها _في نظري_ قد تكون بأبعاد شخصية نفسية، لكن يجمعهم مقصد واحد، وعمل أصحاب هذا التوجه الإسلامي، يتجلى في التالي:

- -1دراسة التراث الإسلامي باعتباره إنتاجا بشريا له خصوصيا ثقافية وحضارية ودينية (أفهام العلماء و إنتاجهم في اللغة والأصول والفلسفة والفقه...) وتجديده وفهم القرآن والسنة فهما تر اثيا /معاصرا.
- -2نقد"حداثة" وفكر(الغرب) بعد التمحيص والتدقيق المفاهيمي، الذي مكنهم من بيان مغالطات الاستشراق والاستغراب، وأخطاء الترجمة القاتلة، والتي من خلالها تم احتطاب بعض المفاهيم المغلوطة.
- -3بناء قواعد كلية ذات الأصول الإسلامية، بناء على تصور كلي إسلامي حضاري في جميع المجالات، على حسب ما تقتضيه الظروف الزمانية والمكانية والحالية، وأصحاب هذا التوجه على سبيل المثال لا الحصر:

1- طه عبد الرحمن: الفيلسوف المغربي، ولد سنة 1944 بالجديدة –المغرب، درس الفلسفة في جامعة محمد الخامس بالرباط وحصل على الإجازة، كما حصل على إجازة ثانية في الفلسفة من جامعة السوربون- فرنسا، كما حصل على الدكتورة سنة1972 وموضوعها:"اللغة والفلسفة: رسالة في البنيات اللغوية لمبحث الوجود"، وبعد ذلك رجع إلى

وطنه باعتباره أستاذا فعمل في جامعة محمد الخامس بالرباط ، مدرسا المنطق وفلسفة اللغة.

وله من الأعمال ما جعل المكتبة العربية -الإسلامية والعالمية غنية ، فعرف طه في العديد من جامعات العالم، وخيردليل علة ذلك، الأطروحات التي تناقش في فكره وأعماله.(انظر كتب الفيلسوف)

2- عماد الدين خليل: المفكروالأديب والمؤرخ العراقي، ولد 1941 بالموصل- العراق، درس الأدب بجامعة بغداد، وحصل على الإجازة منها، سنة 1962. كما حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي، سنة 1965. وحصل على الدكتورة في نفس التخصص، من جامعة عين شمس، سنة 1968، ساهم عماد الدين مساهمة كبيرفي تجديد العقل المسلم، وتصحيح التاريخ ، وبناء تصور إسلامي في الأدب.(انظركتب المفكر).

3- أبويعرب المرزوقي: فيلسوف ولد سنة 1947 بنزرت-تونس ، درس بفرنسا وحصل على إجازة في الفلسفة من السوربون 1972، كما حصل على دكتورة في موضوع "الفلسفة العربية واليونانية" سنة 1991.

وهو فيلسوف ثوري، عمل على إعادة النظرفي الفعل الفلسفي الإسلامي وطرح الفلسفة والفكر الإسلامي بصبغة جديدة، كما عمل على إعادة النظرفي التفسيرالقرآني بصبغة فلسفية، وهوفي الحقيقة من الفلاسفة القلائل المنخرطين في الأحداث الو اقعية الدائمة، محاولا تحليلها وإعطاء أبعادها ونتائجها.(انظرأعمال الفيلسوف).


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
الموت والحياة
د. أحمد إبراهيم

الموت والحياة

–الجزء الأول –

فى سنة تخرجي من الجامعة وقبل موعد امتحانات نهاية العام بيومين تقريبا تُوفِّيت أمي –رحمة الله عليها– وكان ذلك فجأة وبدون أي مقدمات...أذكر يومها حين اشتد غضبي على طبيبة الطوارئ وقلت لها بلهجة منفعلة لماذا لا تسرعون فى اسعافها؟ فقالت بهدوء مفرط :لأنها بالفعل ميتة....فقلت لها ماذا تعنين "بميتة"؟ هيا قومى حالا بصدم قلبها كهربائيا وأيقظيها... فقالت مرة أخرى : لقد ماتت....

وكأن هذا اليوم هو أول يوم أسمع فيه عن شيء اسمه "الموت"... حينها فقط شعرت بتلك الرهبة المتعلقة بالموت وتفجرت برأسي عشرات الأسئلة حول حقيقة الموت والحياة.

فقد نتفهم جميعا أن المشاعر من طبيعتها الغموض وغياب الحدود الواضحة لكن العجيب حقا أننا إذا نظرنا للموت والحياة من وجهة نظر العلم فلن يقل غموضها بل قد يزداد!!

لا يوجد تعريف للحياة متفق عليه بين العلماء لأننا لو اعتبرنا الأشياء الحية هى تلك التى تتكاثر ذاتيا فهذا يجعلنا نستبعد الأنواع الهجينة مثل البغال من قائمة الحياة لأنها عقيمة لا تتكاثر. وعلى الجانب الآخر نجد أن كريستالات الملح يحفز وجود بعضها تكون المزيد منها فما تقوم به أشبه بالتكاثر لكن لا يمكن أن يعتقد أحد أن ملح الطعام الموجود على مائدته كائن حى.

أيضا لو اعتبرنا الحياة هى تلك الأشياء التى تحكمها قوانين التطور –من وجهة نظر من يسلمون بصحة نظرية التطور– فهذا يعنى أن كل فرد منا ليس بكائن حي لأن التطور يفترض به أنه يعمل على المجتمعات وليس على الأفراد.

ولذلك فالعلماء متفقون على أنه لا يوجد تعريف صحيح جامع للحياة أو الموت ومع ذلك لا أحد فينا يجهل ما هى الحياة وما هو الموت ولذلك يتم الإعتماد على الصفات الظاهرة المعروفة عن الحياة والموت.

نفس مشكلة التعريفات هذه ظهرت منذ 70 عام تقريبا حين أراد ألان تورينغ أن يضع تعريفا للذكاء الاصطناعى ولم يستطع لأنه لا يوجد تعريف للوعى البشري الطبيعى أصلا فتجاوز ذلك بتصميم اختبار يسأل فيه شخص ما الحاسوب مجموعة أسئلة بدون معرفة هوية المجيب ومن خلال الإجابات يستنتج هل كان هذه المجيب بشرا أم برنامج حاسوب.

فلو تمكن البرنامج من محاكاة إجابة البشر حتى ينخدع السائل فيظن أنه شخص حقيقى يكون بذلك قد تجاوز الإختبار.

فحقيقة اختبار تورينغ Turing test أنه يحاول تقييم مدى محاكاة الذكاء الاصطناعى لبعض خصائص الوعى وليس أنه يحاول إثبات أن الآلات واعية حقا.

واستراتيجية تورينغ هذه استخدمت فى البيولوجى أيضا كمقياس لتقييم مدى نجاح الخلايا الاصطناعية Artificial cell فى محاكاة الخلايا الطبيعية فهذه الخلايا الاصطناعية لا يتم صنعها من مواد حية ولا تقوم بعمل الخلية الحية لكنها تحاكيها في وظيفة ما.

مثل بحث(1) شريف منسي الذى قدم فيه مع فريقه خلية صناعية يمكنها خداع الخلية الحية و إيهامها بأنها أيضا خلية حية مثلها ويمكن أن ترسل لها وتستقبل منها رسائل كيميائية تماما كما أوهم الحاسوب السائل أنه شخص واع. فما صنعه منسي ليس بالطبع خلية حية ولم يقترب من ذلك وإنما صنع شيء يمكنه محاكاة أحد التفاعلات الكيميائية بين الخلايا.

هذه النوعية من التجارب تندرج ضمن مجال الأحياء الاصطناعية **synthetic biology** والذي بدأ فى أوائل القرن العشرين حين تمكن العلماء من صنع مركب عضوى فى المعمل هو اليوريا وكانوا من قبل يظنون أن الكيمياء العضوية –التفاعلات الكيميائية التي تحدث داخل أجسام الكائنات الحية– لا يمكن إنتاجها فى المعامل. ثم تم انعاش المجال مرة أخرى بتجربة ميلر الشهيرة التي أنتج فيها بعض الأحماض الأمينية داخل المعمل. لكن التطور الحقيقي لهذا المجال بدأ فى عام **2000** حين امتلكنا تقنيات قص ولصق الجينات واستطعنا تعديلها بسهولة وبتكلفة رخيصة نسبيا.

ورغم أن الخلية الحية الواحدة تعتبر عالم كبير من الغموض وما نجهله فيه أكثر مما نعلمه حتى الآن (2) (3) إلا أننا بتنا نسمع كثيرا عن دعاوى صنع خلية حية من الصفر **from scratch** لكن الحقيقة أن كل هذه المحاولات هى مجرد محاكاة لأحد وظائف الخلية فنحن لا نعلم كل المكونات الكيميائية للخلية ولا نعلم كثير من وظائف الجينات و البروتينات كذلك نجهل الكثير جدا عن الترتيب المعقد للتفاعلات التى تحدث فى الخلية كما أنه لا يمكن لأحد إحياء خلية بعد موتها فكيف يمكن لأحد ادعاء صنع خلية حية من الصفر؟!

فى مجال الخلايا والأحياء الاصطناعية يوجد طريقتان: من أعلى لأسفل **Top-down** و من أسفل لأعلى **bottom-up** الطريقة الأولى هى طريقة كريغ فنتر وغيره والطريقة الثانية هى طريقة كيت أداملا وغيرها.

الطريقة الأولى تحاول أخذ خلية حية وحذف الجينات منها حتى تصل إلى الحد الأدنى الممكن تواجده لكى تظل الخلية حية.

والطريقة الثانية تحاول تجميع المكونات الأساسية للخلية–وهى فى الحقيقة غير معروفة– لصنع خلية أو محاكاتها من خلال مواد غير حية تقوم بنفس الوظائف التي تقوم بها الخلية الحية.

وفى كلا الحالتين يظهر لك عند تفحص ما يجرى أنه ليس صنع حقيقي لخلية حية.

كمثال على طريقة من أعلى لأسفل: فى عام 2016 قام فنتر وفريقه بحذف بعض الجينات من أصغر جينوم لكائن حي وهي بكتيريا الميكوبلازما Mycoplasma mycoides وعدد جيناتها الطبيعية 525 حتى وصل إلى خلية حية لديها 473 جين فقط ويفترض بهذه الجينات أنها الحد الأدنى الممكن لإيجاد الحياة. وطبعا الإعلام روج لهذا الحدث بأن فنتر صنع حياة من الصفر وأنه أوجد كائنا حيا لم يكن له وجود من قبل إلى غير ذلك من الفرقعات التي لا تصف حقيقة الأمر.

لكن فنتر رغم كونه ملحدا إلا أنه كان صريحا فقد قال أن الأمر صادما لأنه من ضمن هذه ال 473 جين الأساسية نحن لا نعلم أى وظيفة ل149 منهم والأدهى من ذلك أن هناك 79 جين منهم لا وجود لهم فى أى كائن حي آخر. وقال أيضا (لقد كان المجتمع العلمي يعاني أساسا من الوهم بأننا كنا نعرف كل علم الأحياء. نحن حقا مثل كائنات فضائية من كوكب آخر نحاول معرفة ما تفعله هذه الأجزاء)(4)

وكمثال على طريقة من أسفل لأعلى: فى عام 2018 قام نيل ديفراج بما قيل عنه أنه الخلية الاصطناعية الأكثر شبها بالخلية الحية حتى الآن (5) (6) وهى عبارة عن كبسولات من السيلكون بجدارها منافذ وبداخلها معادن من الطين لأن الDNA يرتبط بشدة مع الطين ثم تم إضافة ال DNA و tRNA و ريبوسوم وإنزيمات بوليميراز RNA و الأحماض الأمينية وكل هذا وغيره تم نزعه من خلايا حية حقيقية ونقله إلى هذه الكبسولات وكان النجاح الذي سجلوه هو نشاط ال DNA وإنتاج البروتينات التى بدأت فى الانتقال بين الكبسولات لكن واضح أن هذا ليس صنعا للحياة على الإطلاق وإنما هو مجرد تغير للحاوية التى تعمل داخلها النواة أو الخلية.

لكن ماذا عن محاولة إحياء الموتى؟

سمعنا كثيرا عن مشاهير وأثرياء دفعوا مبالغ طائلة لتحفظ جثثهم أو أدمغتهم حتى يصل العلم يوما ما إلى تقنية لإحياء الموتى.

هذه العملية تسمى **Cryonics** وهى بالمناسبة تعتبر علما زائفا (7) لأنه لا يوجد أى دليل علمى على إمكانية إحياء الموتى بتقنية ما فى المستقبل لأن هذه الجثث لو نجت من آثار التبريد فلن يتمكن أحد من إصلاح الدمار الذي تسبب فى الموت أصلا.

والذي يفعلونه فى هذه العملية هو التبريد السريع للجثة أو الدماغ فى النتروجين السائل عند درجة حرارة –195C° مع حقن مواد كيميائية لمنع الماء من تكوين كريستالات الثلج الحادة لأنها لو تكونت فسوف تمزق الخلايا وتتسبب فى دمار خلوي كبير. وهذه التقنية في الأصل تعتبر محاكاة لمرحلة السكون **dormancy** التي يقوم بها كثير من الكائنات الحية حتى تتحسن الظروف البيئية مثل بذور النباتات وبعض الأسماك والضفادع والديدان والبكتيريا.

فعلى سبيل المثال يدخل ضفدع الخشب فى مرحلة السكون طوال فصل الشتاء البارد فى ألاسكا ويتجمد جسده تماما ويفرز بروتينات تمنع تكون كريستالات الثلج وبروتينات أخرى تخفض التفاعلات الأيضية إلى أقل قدر ممكن لكن هذا لا يعني أنها تتوقف عن الحياة تماما أو تموت ثم تعود للحياة مرة أخرى. لأنها تظل حية أثناء فترة السكون مهما طالت ويظل هناك تفاعلات داخل الخلايا بالرغم من قلتها و من الخطأ تصور أن الخلايا تموت أو تتوقف تماما عن التفاعل كما تقول ليلى ريتسما الباحثة فى هذا المجال (لكن ليس صحيحًا أنهم لا يفعلون أي شيء)(8)(9)

ولذلك فإن تجربة (10) إحياء دماغ الخنزير بعد أربع ساعات من موته لم تكون إحياء فى الحقيقة لأن الخنزير لم يعد وعيه وإنما كانت بعض الخلايا قد دخلت فى مرحلة السكون أو كانت مازالت حية ثم تم انعاشها فأظهرت بعض النشاط الكيميائي لبعض الوقت.

لكن إذا أتمت الخلية عملية الموت الحقيقي أو التحلل الخلوي **apoptosis** أو تجاوزت مراحل معينة فيه فلا يمكن بعدها الرجوع للحياة لأن إنزيمات الكاسبيز **caspases** تقوم حينها بتفتيت **DNA** و عضيات الخلية (9)

وأخيرا هل يمكننا أن نهرب من الموت؟

أثبت بول نيلسون وجوانا ماسل بالبرهان الرياضي (11)(12)(13) أن الهروب من الشيخوخة والموت مستحيل في حقنا وحق الكائنات متعددة الخلايا عموما.

لأن الكائن متعدد الخلايا لو طال عمره بالهروب من الشيخوخة فسوف يقضي عليه السرطان ولو طال عمره بالهروب من السرطان فسوف تقضي عليه الشيخوخة ولا يمكنه الهروب من كلاهما معا.

الاستنتاج الذى خرجت به هذه الورقة كان مهم جدا والطريقة التى وصل بها هؤلاء الباحثون لهذا الاستنتاج لا تقل عنه أهمية.

نتيجة البحث تخبرنا أن الموت هو القدر المحتوم الذي لا مفر منه بالنسبة لنا كأفراد لكن الطريقة التي سلكها البحث لإثبات ذلك يمكنها إثارة تساؤلات واسعة حول إمكانية بقاء واستمرار الحياة فى النظام البيولوجي ككل في حالة استخدامنا لآليات نظرية التطور والاكتفاء بها لتفسير ظاهرة الحياة وهذا ما سوف نتناوله في الجزء الثاني من المقال بإذن الله.

قال تعالى :

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

– الجزء الثاني –

فى الجزء الأول تكلمنا عن مفهوم الحياة والموت بالنسبة لأفراد الكائنات الحية وفي هذا الجزء نتعامل مع مفهوم وشروط الحياة بالنسبة لمملكة الكائنات الحية أو بالنسبة للنظام البيولوجي نفسه.

وكنا قد ذكرنا أنه ينبغى الوقوف مع الطريقة التي اتبعها نيلسون فى ورقته (١٤) التى استنتجت حتمية الشيخوخة والموت لأن هذه الطريقة تفتح المجال أمام تساؤلات هامة تتعلق بشروط استمرار ظاهرة الحياة فما هى هذه الطريقة وما الذى تشير إليه؟

نيلسون وماسل تعاملوا مع جسم الكائن متعدد الخلايا باعتباره نظاما بيولوجيا مكون من مجموعة خلايا متعاونة ونظروا للسرطان على أنه مجموعة خلايا أنانية داخل هذا النظام وخلصوا إلى أن تعطل هذا التعاون هو النتيجة الحتمية لهذا النظام بصرف النظر عن عدد الخلايا أو نوع وحجم الكائن الحي ...حيث قالوا:

(regardless of the number of cells, either cell function or cooperation will eventually break down)

(بغض النظر عن عدد الخلايا ، ستتعطل وظيفة الخلية أو التعاون في النهاية)

كما أكدوا على أن مشكلة التعاون فى مواجهة الأنانيين التي تنتهي بزوال التعاون ومن ثم الحياة لا يمكن حلها أبدا لأن أى حل ينصر المتعاونين سوف يظل هو نفسه معرضا للاختراق من قبل أنانيين آخرين فيمكن لأى حل مقترح أن يعطل أو يمنع الأنانيين لبعض الوقت لكن لا يمكن أن يوجد حل نهائي لهذه المشكلة ..حيث قالوا:

More broadly, any adaptation that may prevent or delay)
(.cancer can itself become the target of a selfish trait

(على نطاق أوسع ، أي تكيف قد يمنع السرطان أو يؤخره يمكن أن يصبح في حد ذاته هدفًا لسمات أنانية)

وضربوا بعض الأمثلة على ذلك:

التيلومير مثلا هو مجموعة نوكليوتيدات متكررة في نهاية الكروموسومات تنقص تدريجيا مع كل عملية انقسام مما يجعل هناك حد نهائي لعدد الانقسامات المسموح بها لأى خلية وهذه تعتبر آلية تعاونية لقمع الميل الأناني السرطاني داخل الخلية الذي يدفعها للتكاثر بلا حدود ويجعلها تطغى على الخلايا من حولها لكن هذه الآلية لا يمكن اعتبارها حل نهائي لإنقاذ التعاون لأن هناك إنزيم التيلوميريز الذى يمكنه إصلاح التيلومير إلى ما لا نهاية وبالتالى يسمح للسرطان أن ينمو والفائدة من وجود التيلوميريز هى أن الخلايا تحتاج إلى إفرازه فى المرحلة الجنينية لأن معدل الانقسام يكون ضخم جدا حينها.

وكمثال آخر لقدرة الأنانيين على تجاوز الآليات التعاونية هو برنامج التحلل الخلوى Apoptosis

و الذى يتم تنشيطه من خلال الخلايا المحيطة لإزالة الخلية المريضة أو المعيبة مما ينتج عنه رفع كفاءة الكائن الحى وتنقيته من الآفات وإبقائه فقط على الخلايا المتعاونة السليمة ولذلك يعتبر برنامج التحلل الخلوى آلية تعاونية لكن الخلايا السرطانية تمتنع عن الاستجابة لأوامر برنامج الانحلال الخلوى ثم توجه هى هذه الأوامر لقتل الخلايا السليمة من حولها وبذلك تتجاوز هذه الآلية التعاونية بل وتستخدمها لصالحها.

وهذه المعالجة تعرف باسم مأساة الموارد المشتركة أو معضلة السجين والنتيجة التى خرج بها البحث والتى تقول بحتمية زوال التعاون و استحالة وجود حل نهائي لهذه المشكلة يمكننا تعميمها على النظام البيولوجى ككل واستنتاج أنه ما كان ينبغى أبدا وجوده واستمراره وتنوعه وهروبه من الانهيار

الحتمي الذي كان دائما ينتظره لو أننا احتكمنا إلى قوانينه الداخلية وحاولنا تفسير قيامه بها بدلا من اعتقاد أن قيامه كان من خالقه ومدبر أمره الذي أظهر لنا هذه القوانين البيولوجية لتخبرنا أنها فى نفسها عاجزة عن إقامة هذه الحياة.

ولذلك فإن مشكلة التعاون تصطدم بآليات التطور الأساسية مثل الانتخاب والطفرات ويتطلب الأمر دائما وجود آليات إضافية أو خارجية مؤقتة **exogenous mechanisms** هذا بالتأكيد يطعن فى نظرية التطور وقدرتها التفسيرية لوجود وبقاء النظام البيولوجي لأنه لا يوجد حل دائم أو عام للمشكلة حتى إنها سميت "معضلة داروين الأخيرة"

على حد وصف روبرت ماي عملاق اوكسفورد الذي وضع مع مارتن نواك آلية التركيب المكاني و التي هي أحد أهم الآليات الإضافية لدعم التعاون(١٥)

داروين نفسه قال فى كتابه أصل الأنواع عن مشكلة التعاون(١٦)

I…will confine myself to one special difficulty, which at first appeared to me insuperable, and actually fatal to my whole theory

(سوف أقتصر على مشكلة خاصة واحدة والتى بدت لى فى أول الأمر لا يمكن التغلب عليها وأنها فى الواقع قاتلة لنظريتى بأكملها)

لماذا قال أنها قاتلة للنظرية بأكملها؟

لأن جوهر وأصل نظريته هو الانتخاب الطبيعى وهو يناقض التعاون وهناك سبب آخر لم يكن داروين يدركه جيدا حينها وهو أنه لا يمكن تفسير أى شكل من أشكال الحياة بدون تفسير نشأة التعاون والحفاظ عليه **emerge and maintenance** لأن التعاون يتداخل مع كل

جزئيات وبنى وتراكيب الحياة بدأ من تعاون وتنافس الجينات وانتهاء بالسلاسل الغذائية والتوازن البيئى ..

لماذا قال (فى أول الأمر)؟

لأنه اقترح آليات ظن أنها قادرة على حل المشكلة لكن هذا لم يحدث فى الحقيقة ومازال التعاون مشكلة كبرى لم تحل حتى الآن رغم كل هذا السعي الحثيث (و نحن نزعم أنه لا يمكن أبدا حلها في ظل الاكتفاء بالإطار الداروييني و الآليات المادية عموما) وكذلك لا يمكنهم تجاهلها مهما حاولوا التظاهر بأن كل شيء على ما يرام . (أو كما يقال.... The elephant in the room)

وقد أدرك الدراونة منذ زمن بعيد أنه لا يوجد حل جوهرى عام لمشكلة التعاون حيث انتبه إلى ذلك هالدين أحد أعمدة الداروينية الحديثة وذكر على أنه لا يوجد مبدأ عام يمنع الانتخاب الطبيعى من نصرة الأنانى ضد المتعاون (١٧)

as early as in 1932 J. B. S. Haldane pointed out that there was no general principle preventing adaptive evolution from harming population performance

مشكلة التعاون أنه مكلف ثم أنه معرض دائما للاستغلال و هاتان معضلتان:

1–لأنه إذا كان مكلفا فكيف وجد و انتشر بالانتخاب الطبيعي؟

2– إذا كان معرضا دائما للاستغلال من قبل الأنانيين فكيف استمر و صمد كل هذا الوقت؟

وقد أغفل منتقدي داروين المعاصرين له هذه المعضلة و اهتموا بمعضلة توريث الصفات (و سبحان الله مازالت حتى اليوم معضلة التعاون مهملة من منتقدي التطور)

لكن بعد مائة عام تقريبا من صدوركتاب أصل الأنواع عاد هاميلتون وأقر أن التعاون هو المشكلة الأكبر وقدم آلية إضافية لتفسير التعاون و هي انتخاب ذوي القربى ليصبح بذلك أهم عالم بيولوجي بعد داروين ثم جاء إدوارد ويلسون و مارتن نواك وقدموا تفسير إنتخاب المجموعة وقدم نواك مع ماى آلية التركيب المكانى.

لكن كل هذه الآليات الإضافية لا تقدم حلا نهائيا لحفظ التعاون فهي بالكاد تفسر إمكانية وجوده في ظروف خاصة محددة و لا تفسر انتشاره العام و استمراره الدائم في كل صور و مستويات الحياة أو بكعنى أصح تقدم خنادق للمتعاونين يمكنهم الاختباء بها من الأنانيين لكى لا يتقابلوا معا.

و يبقي التعاون دائما مهددا لأنه منهزم أمام الأناني لا محالة وفقا لحكم الانتخاب الطبيعي.

وهذا يظهر جليا في مأساة الموارد المشتركة و معضلة السجين التي قضت بأن مقابلة واحدة بين متعاون و أناني ستنتهي حتما لصالح الأناني مما يؤدي إلي زوال التعاون و من ثم زوال المجتمع كله بما في ذلك الأناني مما يعني انتهاء كل صور الحياة .

ولكى لا يظن أحد أن هناك شيء حديث فى نظرية التطور تجاوز معضلة التعاون أنقل هنا بعض الاقتباسات من ورقة علمية طويلة (١٨) حوالى 90 صفحة نشرت حديثا فى 2019 وعرضت مشكلة التعاون والآليات الاضافية التى تحاول تقديم حلول للمشكلة

وذكرت أن انتخاب ذوى القربي وانتخاب المجموعة لا يوفران رؤى قيمة بشكل خاص حول متطلبات التعاون المستقر.

the frameworks of kin-selection and group-selection.14 While we

think that both frameworks do not provide particularly valuable insights into the

,requirements for stable cooperation

وكيف مثلا كان يظن فى منتصف القرن الماضي أن انتخاب المجموعة قد حل مشكلة التعاون لكن لم يصمد هذا الادعاء طويلا وتم توجيه انتقادات شديدة له

in the mid 20th century. In that period, the dilemma of cooperation was believed to be solved by selection on a group or even species level and the latter was even referred to as species selection. However, this alleged success did not hold for long. Drastic criticism was formulated for example by George C. Williams [372] and the idea of group-selection became less and less popular

وكما عرضت الورقة الانتقادات ضد انتخاب المجموعة عرضت أيضا الانتقادات ضد انتخاب ذوى القربى و الانتقادات ضد التركيب المكانى وهذه هى أهم الآليات الاضافية التى قدمت كمحاولة لحل مشكلة التعاون ثم عرض المؤلفون الحل (الجزئي) المحتمل كما يرونه – قد اتفقنا أنه لا يوجد حل عام لمشكلة التعاون– وحلهم كان محاولة لأخذ محاسن كل آلية والوصول لحل وسط وهو وجود معدل انتشار متوسط للمتعاونين للأن معدل انتشارهم لو كان قليلا أو معدوما فلن يتفادوا ظهور الأنانيين داخل مستعمراتهم عن طريق الطفرة أو الهجرة إليها ولو كان معد الانتشار كبيرا لإلتقوا بالأنانيين فى الطريق أو لدخلوا إلى مستعمراتهم .

The (partial) answer to the dilemma of cooperation . obtained

from these studies is that regular dispersal leading to population bottlenecks

and subsequent population growth can promote cooperation. In that sense, the

mechanism is diametrically opposed to Hamilton's suggestion that limited dispersal

can facilitate cooperation [133]. A closer look though reveals that in these

structured populations it is actually the interplay between limited dispersal and

.strong dispersal resolving the dilemma

لكن هذا فى الحقيقة ليس حلال أيضا لأن الانتشار المتوسط للمتعاونين لا يمكن أن يحل معضلة التعاون ولو بشكل جزئى (ما دام لا يوجد مانع يمنع الأنانيين من امتلاك معدل انتشار كبير)

فما دامت نظرية التطور لا تملك ما يمنع الأنانى من الذهاب للمتعاون فلا قيمة لكل محاولات الفرار المذكورة

فعدم اتيان الفريسة إلى باب المفترس لم يكن يوما مانعا للإفتراس ....والمتعاون والأنانى هما بالضبط كالفريسة والمفترس

وفى النهاية يتضح لنا من خلال هذا المقال والمقال السابق أن حياة الكائنات عموما وحياة كل منا خصوصا هى محض منة ربانية تتجاوز إطار الكيمياء والفيزياء والمادة والانتخاب الطبيعى وكل هذه العوامل الطبيعية المادية، لتشير بوضوح إلى الخالق العليم الحكيم.

المراجع:

١-

https://pubs.acs.org/doi/10.1021/acscentsci.6b0033

٢-

https://alleninstitute.org/what-we-do/cell-science/news-press/articles/5-things-we-still-dont-know-about-cells

٣-

https://singjupost.com/life-but-not-alive-kate-adamala-
/at-tedxbeaconstreet-full-transcript

٤-

https://www.nationalgeographic.com/science/phenomena/
2016/04/21/we-built-the-worlds-simplest-cell-but-
/dunno-how-it-works

٥-

https://www.sciencemag.org/news/2018/11/biologists-
create-most-lifelike-artificial-cells-yet

٦-

https://www.nature.com/articles/s41467-018-07473-7

٧-

https://www.chicagotribune.com/news/ct-xpm-2002-09-29-0209290429-story.html

٨-

https://www.quantamagazine.org/cell-death-anastasis-and-resurrection-20190708/

٩-

https://www.cell.com/trends/cancer/fulltext/S2405-8033(18)30241-3?_returnURL=https%3A%2F%2Flinkinghub.elsevier.com%2Fretrieve%2Fpii%2FS2405803318302413%3Fshowall%3Dtrue

١٠-

https://www.nature.com/articles/s41586-019-1099-1

١١-

https://www.pnas.org/content/114/49/12982

-١٢

https://www.pnas.org/content/115/4/E559

-١٣

https://phys.org/news/2017-10-mathematically-impossible-aging-scientists.html

-١٤ https://www.pnas.org/content/114/49/12982

-١٥

https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0960982209016881

١٦-
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2665839/#!po=1.08696

١٧-
https://royalsocietypublishing.org/doi/full/10.1098/rstb.2012.0081#ref-list-1

١٨-
https://www.sciencedirect.com/science/article/abs/pii/S0022283619305789


وائل مجدي
العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
الأطر الفلسفية الكبرى
تساؤلات موضوعية
مشكلة الرصد
الإطار
قياس التغاير
الباحث عصام شعبان عامر

الأطر الفلسفية الكبرى

(1) تساؤلات موضوعية

" إن العالم متناهى من حيث ما هو موضوعا , متنامى من حيث هو وجودا , لانهائى من حيث هو حدودا , متوقف على آناى من حيث أنا جمودا "

لا ريب ان الإدراك البشرى من حيث هو وعى متطور يستطيع أن يقيس العالم من حيث هو لا كما هو بل كمنعكس فى النفس ومع ذلك يستطيع أن يفرق بين الصورة التى هى العالم ةوانعكاسها فى المرآة والتى هى النفس وبين الصورة وانعكاساتها كثير من الصور المشوهة والمحولة .

ٔن عملية الفكر ذاتها داخل بنية الوعى تخضع للإحتمالية والصدفة العشوائية والإنسان كفرد واعى يملك إرادة ان يحدد ما هى تلك الإحتمالات التى يقبلها وما هى تلك الإحتمالات التى لايقبلها بهذه الطريقة يبنى العقل مع الوعى بنية خاصة بالمنطق .

على الرغم من ذلك هناك بعضا من البشر استطاعوا بعقولهم أن يكسروا حاجز لك المنطق الصورى وأن يلجوا داخل تلك الاحتمالات وينتقوا منها بعناية ما يساعدهم على استجلاء واقع الصورة (العالم) فى محاولة للموضوعية فى تناولها .

اختراق حجب المنطق والتى هى جدارا منيعا متولدا فى بنية الوعى نتيجة لتطور الإدارك النفسى بواقع انعكاس الصورة (العالم) فى تجليات النفس لشئ صعب جدا لأنك بذلك تطلب من النفس التخلى عن انانيتها فى الوجود ذاتا بالقوة داخل مفردات الصورة (العالم) .

هذه المحاولة البائسة للوجود بالقوة جعلت من الوعى الإنسانى محاولة لكف احتمالية الصدفة والعشوائية للصور المتكونة داخل مرآة النفس للصورة (العالم) الأصلية .

والسؤال الموضوعى الآن هو

ما بالك إذا أصبحت الصورة (العالم) صور متعددة (عوالم متعددة) وأكوان موازية وهذا ما تخبرنا به فيزياء القرن الواحد والعشرون .... ياللهول .

(2) مشكلة الرصد

إنك لا تستطيع أن تعرف الحقيقة دون مواقعتها فإذا واقعتها لن تكون أنت ولن تكون هى الحقيقة

الحقيقة جدار مثقوب فى زوايا النفس مكمنه وبما أن النفس لا تكون نفسا إلا من مخابئ أكمنتها فلن تكون الحقيقة حقيقة وهى ظاهرة إذ أن الحقيقة مستورة مصونة ضمن جراب النفس فإذا انسلت من جرابها فقد الجراب وظيفته وفقدت الحقيقة كينونتها

لذا كان الدرب طويلا وعسيرا أمام هؤلاء العارفين الذين حاولوا التفتيش والتنقيب وولجوا فى اعماق أعماق اوحال النفس حتى تتجلى لهم الحقيقة دون حجاب وتتعرى فى كشف دون مكاشفة أمامهم

إن عملية الرصد تتطلب أربع أمور :-

الراصد الواعى – وسيلة للرصد – مرصود واقعى – تفاعلات رصدية تجمع بين الراصد والمرصود من خلال الوسيلة

الراصد الواعى مشكلته تدخل وعيه فى عملية القياس ليضيف على حقيقة المرصود معانى زائدة عن حقيقة المرصود

أما وسيلة الرصد فمشكلتها تعلقها بالراصد من جهة وبالمرصود من جهة فهى خيط ممتد من الراصد للمرصود والعكس فى مترية الزمكان الملتوى والتواء هذا الخيط هو ما يسبب المشكلة أحيانا إذ أنه يبعث للراصد الواعى صورا مشوهة ومعلومات مغلوطة يدخلها الراصد فى وعيه ويجعل منها الوعى صور متشابكة ومتراصة بالمنطق

أما المرصود الواقعى مشكلته واقعيته والواقعية تعنى عدم التحلل لمكونات أو التشتت بتفاعلات ومعنى ذلك أن معنى واقعيته أن يكون غير قابل للتغير والتبدل وأن يكون سكونه سكون كم قبل أن يكون سكون كيف كم لا يطرأ عليه تغير وكيف لا يتغير

أما التفاعلات الرصدية فمشكلتها كونها رصدية وكونها تفاعلات إذ أنها بذلك كسر ت تناظرية حياديتها فى تغيير النتيجة فبتفاعل مكونات العملية الأربع تنتج ولا ريب ريبة فى القياس

وتلك الريبة ليس سببها أى من مكونات العملية رغم ما سردناه بل إن الريبة حينها ستكون طبيعة الوجود ذاته لأنه لا يكون موجود إلا بهذا القدر من الريبة ولا يمكن الكشف عن وقائع وجوديته لا باستنطاق مكنونات وقائعه وباستنطاق مكنونات وقائعه من أجل مكاشفته تظهر كارثة الريبة لأن استنطاق المكنون يوقع المحظور عندها لا يصير الراصد راصدا ولا المرصود كما هو مرصودا بل يطرأ على الجميع التغير والتبدل

لن تعطيك الطبيعة الوجودية أسرارها من غير أن تدفع الثمن ودفع الثمن هنا هو ضياع الحقيقة بالريبة لتكتشف لاحقا أنه على الحقيقة ما من حقيقة وان الكل بلا استثناء صور لشئ أعمق خارج نطاق الوجود ذاته واننا كلنا تجليات لهذا الشئ والذى هو جزء فى الكل وكل الأجزاء فى آن

ومن هنا كانت الطبعيانية الوجودية أكثر مراوغة ولؤما من الطبعيانية العدمية

ولأن الوجود والعدم حينها لن يكون لهما معنى لأنهما من نفس الطبيعيانية وكلاهما طبائع وبالتالى جاز لنا أن نقول ان الوجود صار مشكوكا فى وجوديته كما أن العدم صار مشكوكا فى عدميته وانه بالريبة لا مقر ولا مستقر ولن نرسى للحقيقة يوما على بر واننا فى بحر النون كسابح يرجو النجاة وهو غريق وسيسقط حتما فى عمق البحر الازلى الأبدى المحيط

كل الأشياء واللاشياء لا بد أن تجتمع فى آنية خاصة تكسر فيها جميع عمليات الرصود لكل الإحتمالات هنا تصبح كل الإحتمالات حقيقة ومن هنا يتوه المعنى الميتافيزيقى للحقيقة فن نعرف

الخير والشر وبالتالى تسقط كل القيم والأخلاق من تلقاء نفسها لأنه لا تستطيع على وجه التحديد أن تحدد تلك المثل الحاكمة للأخلاق فهى تختلف طبيعيانيتها من حيث الرصد

الراصد يؤثر على المرصود بالقياس والمرصود على الراصد بالتغير

وكلاهما فى مترية الزمكان صور مشوشة ومشوهة فى حالة صعود وهبوط دائمين

قد يكون ما نسمية نظام وتطور فى إطار آخر خارج مترية الزمكان فوضى وتخلف

قد يحجب عنك التشوه أعماق الحقيقة ويعطيك غلاف من الأوهام

(3) الإطار

" إنك يوم تحددت تحددت إطارا لا أكثر"

إن خارج ما نسميه وعى نسميه وهم ليس لكونه طبيعة مختلفة عن ما يكون داخل الوعى بل لأنه خارجا خارج إطار محدد يعمل داخله الوعى .

إذا فحدود معرفتنا هى حدود تلك الأطر الأطر التى حددت حدود الوعى وهى تشكلت بوجوده داخل هذا الوجود أو ذلك وهى كلها مختلفة ومن هذا الإختلاف كانت المعضلة والإشكالية الأساسية إذ كيف يكون هناك وحدة واحدة تتحدد بها الاشياء ومكامنها داخل حدود الوجود الواحد ويحدث بها نفس الترابط الوحدوى داخل كل أطر الوجودات المختلفة وهنا كانت الكارثة !

لقد تم حل المعضلة بما يسمى حس جمعى مشترك فالشمس هى الشمس لأن كل وعى داخل أطره المختلفة ضمن مجموعة من حدود الوجود يرى ذلك والنار هى النار والسماء هى السماء للكل تحت نفس البند بند الحس الجمعى المشترك .

والسؤال هو :– نعم هى شمس ولكن هل ياترى هى نفس الشمس عند كل وعى؟ هى النار هل ياترى هى نفس النار عند كل وعى ؟ هى السماء لكن هل ياترى هى نفس السماء عند كل وعى ؟

الإجابة نعم ولا

نعم هى نفس الشمس ونفس النار ونفس السماء ولكن لا أيضا لأن الشمس ليست هى ذاتها عند من يلتمس الدفء وعند من يلتمس الظل وكذلك النار ليست هى نفس النار عند من يلتمس الضوء وليست هى نفسها عند من يلتمس العقاب والسماء التى تظلنا كلنا لن تكون واحدة سماء الليل غيرها سماء النهار وسماء الحر غيرها سماء البرد وصافى السماء غيرها غيومها إن الأشياء تتبدل ولا تكون هى ذاتها عند الجميع نعم حس مشترك يحدس ولكن إحساس مختلف تلك هى حساسية الوعى حيث يضيف معنى زائد للوجود ولطبيعة الأشياء فالوعى لا يكتفى فقط بقياس الأشياء بغرض معرفتها بل يضيف المعنى للمبنى يضيف للشمس حرها أو دفئوها كما يضيف للنار حرقها أو ضوؤها ويضيف للسماء ظلها أو عواصفها هكذا هى الأشياء تتبدل وتختلف باختلاف الإطار .

الطبيعة هى هى ذاتها انسياق يبدده التدفق داخل الوعى فتتولد المعانى حسب الأطر فى الزمان والمكان .

هنا مكمن الخطر !!

نحن نضيف للطبيعة أشياء زائدة بالجملة ليست منها وذلك لأن رؤيتنا ناقصة جزئية وتفاعلاتنا معها تفاعلات مرتبطة ارتباطا وثيقا بما يتجلى منها فى النفس وما يحدث من انفعال وشعور ينطبع فى الوعى فما نراه من الزهر اللون والعطر وقد نتناسى الشوك ونتذكره فقط عند الوخز.

إن كل ألم مرتبط بتعلم زائد عن طبيعة الوجود إن كل شغف مرتبط بمعلومة زائدة فى انتظارنا فى دهشة فى تساؤل نلج مكامن مستترة داخل كيان الطبيعة ولكن للأسف تلك المكامن ما هى إلا مكامن مستترة داخل أطرنا الواعية .

نحن لانرى الطبيعة نحن نرى أنفسنا من خلالها كما أنها ترى نفسها من خلالنا نحن وهى مستكشفون كل منا يستكشف الآخر نظن ذلك حمقا لأن وللحقيقة كل منا يستكشف نفسه فى الآخر والوعى هو مرآة مزدوجة لكلينا .

إن الحس الجمعى الذى راهنا عليه أصبح وهما هو الآخر شبيه بذلك الوهم خارج إطار الوعى

وبالتالى لا يمكننا أن نفصل بين المعرفة وإطارها فالمعرفة لن تكون هى هى فى أطر مختلفة وتلك كارثة الكوارث الفيزيائية .

فلتعريف الجملة الفيزيائية لابد من إطار حدودى للتعريف وباختلاف حدود الإطار ستختلف الجملة وباختلاف الجملة لن يكون هناك قانون يكون من خصائصه تعميم الجملة فى كل الأطر ومن هنا تصبح قوانين الفيزياء كلها وهم على وهم ولابد من إعادة تعريفها بالجملة إذا انتقلنا من إطار إلى إطار آخر .

٤) – قياس التغاير

إذا ما الحل ؟

الحل يكمن فى قياس التغاير

" إن ما نسميه تغير ليس سوى قياس من وجهة نظرنا نحن "

إن قوانين الطبيعة لابد أن تكون هى ذاتها فى كل المرجعيات والأطر إذ لامعنى لإختلافها من إطار إلى إطار او مرجعية لمرجعية فالهدف الأسمى لأى قانون هو التنبؤ والإستمرارمع التعميم إذا لامعنى لقانون متغير وللحفاظ على ثبات القوانين داخل الأطر اخترعنا ما يسمى بالتغاير وهو نوع من المعاملات ندخله للمعادلة او القانون فيحافظ على ثباتها فى كل الأطر والمرجعيات ومن هنا كان الهدف الأسمى إن تكون قوانينا التى تصف الطبيعة هى ذاتها حتى لو تغيرت تلك الطبيعة ذاتها ونقصد هنا بتغير الطبيعة تغير الفضاء الذى ندرس من خلاله الحالة من ساكن لمتحرك لمتسارع ومن هنا كانت مهمتنا فى غاية التقعيد والتقعير إذ أن الهدف الأسمى هو قياس هذا التغاير من إطار لإطار ومن مرجعية لمرجعية ولما كانت هذه المهمة صعبة لتعدد الأطر كان يجب على الرياضياتيين اختراع شئ ما سهل وبسيط يجعلنا نتعامل مع كل هذه الأطر المختلفة بحيث يمككنا نقل مجموعة من القوانين من إطار إلى آخر بحيث نحافظ على ثبات تلك القوانين وفى نفس الوقت تكون هذه الآداة

سلسلة وسهلة وبسيطة وتستخدم بنفس التكتيك لكل الأطر من هنا جاءت فكرة التنسور او الممتدات فهى ستحافظ على قياس التغاير ذلك ولن تتأثر بتغير الأطر من إطار إلى آخر .

هذه هى افكار اينشتاين ساعده فيها عمالقة امثال لورنتز ومنوكسكى وجروسمان حتى خرج علينا بنظرية متكاملة الأركان رياضيا وهندسيا وحتى أيدتها التجارب كانت النظرية بحد ذاتها على قدرة عالية من الجمال والروعة بمكان حتى انها فسرت وبدقة وتنبأت بكل أحداسها مجتمعة ولم تبقى فيها سوى معضلة المفردة الفيزيائية داخل الثقب الأسود هى التى استعصت عن الحل وحتى الآن

ماذا عن مشكلة الرصد وتدخل الوعى فى القياس ؟

هنا يأتى دور هايزنبرج ومعادلته الشهيرة الريبة والمعادلة بكل أناقة واختصار تخبرنا بان الريبة التى نلاقيها فى القياس ليس سببها الرصد أو تدخل الوعى فى الرصد بل إن الطبيعة ذاتها لها من الخواص ما يجعلها غير متيقنة على المستوى الصغير وهنا لابد أن نفرق بين الخطأ فى القياس وبين اللايقينة او مبدا الريبة فى القياس فخطأ القياس يرجع لأسباب متعددة منها عدم الدقة واستخدام ادوات غير مناسبة وأحيانا بعض العوامل كالرطوبة ودرجة الحرارة قد تتداخل لتحدث خطأ فى القياس وبالتالى خطا القياس سببه أدوات القياس المستخدمة او العوامل البيئية او حتى العامل البشرى فى مثل أخذ القرأة من على مقاييس القياس وخصوصا تلك التناظرية منها والتى تعتمد على التدريج

أما الريبة أو اللايقينية فتخبرنا بأن الخطأ هنا هو فى الطبيعة ذاتها فالطبيعة على المستوى الصغير ما هى إلا عبارة عن تراكيب خاصة تخضع للإحتمالية لا اليقينية وان الأمر ليس سببه رصد أو وعى قدر ان السبب هو الطبيعة ذاتها على هذا المستوى من المقاييس الصغيرة

فهنا يحدث تداخل بين الجسم كجسم وبين موجته المرافقه له أثناء حركته غير أن موجة الجسم المصاحبة او المرافقة له ليست موجة حقيقية كالموجات التى نعرفها فهى مجرد دالة احتمال لا أكثر شئ اخترعناه وابتكرناه لكى نفسر تلك الغرابة التى يظهر بها العالم على المستوى الصغير

هى مجرد تفسير غير مكتمل لنظرية غير مكتملة هندسيا قد تتفق تلك الفرضيات مع النتائج فى المعمل لكنها لا تتفق مع الحدس أو حتى مع البناء الهندسى للواقع العيانى فجسيم ليس جسيم

وجسيم كموجة وجسيم ليس له موضع محدد بل دالة احتمال وموجة حركة غير حقيقة كلها أشياء تتصادم مع الحدس الذهنى والحس الواقعى هنا نرى تجارب ورياضيات ولكنها غير مكتملة

هنا نرى الفرق بين العالم الماكروى الكبير حيث كل شئ متسق وجميل وأنيق وقابل للتنبؤ والرصد وواقعى ومتفق مع الحس والحدس

وبين العالم الصغير الميكروى حيث كل شئ يخضع للفوضى والعشوائية والإحتمالية وكل شئ مناقض للحس والحدس

نظرية مكتملة الأركان ينقصها شئ ونظرية أخرى لم تفسر شئ بل تنبأت بالسلوك العشوائى

جمال بلا تجارب وتجارب بلا جمال

رياضيات لاخطية متقنة تصف كل شئ

ورياضيات خطية مشتتة لا تصف شئ فقط تنبؤ إحصائى لجسيم هنا وهناك


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
LOVE PHYSICS
Elkhaldy
القانون الثانى فى الديناميكا
الحرارية
الباحث عمر حسين الخالدى

الباع الطويل للقانون الثاني (*)

تزخر الطبيعة بأمثلة عن ترتيب منبثق من شواش Chaos وكأنها بذلك تتحدى القانون الثاني للدينامية الحرارية (أوالترموديناميك). وثمة إطار نظري جديد يحل هذه المفارقة الظاهرية.

* مفاهيم مفتاحية

لا يمكن تجنب التبديد waste . هذه الحقيقة القاتمة من حقائق الحياة يحددها القانون الثاني الشهير للدينامية الحرارية تحديدا كما. لكن إذا كان الكون يسعى باطراد إلى مزيد من الفوضى disorder فكيف تفسر ظواهر الانتظام الذاتي التي غالبا ما تحدث في الطبيعة؟ هذه المشكلة مصدرها حقيقة أن الدينامية الحرارية التقليدية تفترض أن المنظومات في حالة توازن، وهي حالة هدوء يندر الوصول إليها بالفعل في العالم الواقعي.

هنالك مقاربة جديدة تغلق هذه الفجوة وتجد أن القانون الثاني يسري تطبيقه على حالات بعيدة عن التوازن. لكن التحول من الانتظام إلى الفوضى قد يكون غير مطرد وفسيحا المجال لظهور جيوب ذاتية الانتظام.

قدم العلم إلى البشرية أكثر نصيبها من خيبات الظن، إذ إنه وضع حدودا لتقانتنا، مثل استحالة بلوغ سرعة الضوء؛ وأخفق في التغلب على تعرضنا للسرطان ولأمراض أخرى؛ كما أنه جعلنا نواجه حقائق غير ملائمة، مثل التغير المناخي العالمي. لكن من بين تلك الخيبات ربما يكون القانون الثاني للدينامية الحرارية أكبرها، إذ إنه ينص على أننا نعيش في عالم يصبح دائما أكثر فوضى ولا يوجد ثمة ما يمكننا عمله بهذا الشأن. ويؤدي مجرد العيش في هذا العالم إلى ترد له لا

مفر منه. ومهما بلغت الاثنا من التطور، فلا يمكنها مطلقا التجنب الكامل لهدر بعض الطاقة، مما يؤول بها أخيرا إلى التوقف. ولم يسقط القانون الثاني فقط ذلك الحلم لإنشاء آلة دائمة الحركة [1] ، بل إنه يوحي أيضا إلى أن الكون سوف يستنفد على المدى البعيد طاقته المتوافرة فيتداعى منهارا إلى ركود أبدي يسمى الموت الحراري.

ومن عجائب القدر أن تاريخ علم الدينامية الحرارية، الذي لا يشكل القانون الثاني سوى جزء منه، يعود إلى حقبة التفاؤل التقاني، أي إلى أواسط القرن التاسع عشر، حين كانت المحركات البخارية حول العالم وكان فيزيائيون من أمثال <R.كلاوزيوس > و <S.N.كارنوت ودر جول> كلفن يطورون نظرية للطاقة والحرارة هدفها فهم كيفية عمل تلك المحركات، وما الذي يحد من كفاءتها. ونشأ عن تلك البدايات الأساسية المهمة علم الدينامية الحرارية كأحد أهم فروع الفيزياء والهندسة. إنه نظرية عامة للصفات الجماعية للمنظومات المعقدة، وليس المحركات البخارية فقط وإنما أيضا المستعمرات الجرثومية والذاكرة الحاسوبية وحتى الثقوب السوداء الموجودة في الكون. وفي العمق تتشابه جميع هذه المنظومات فيما بينها ويؤول كل منها إلى الركود طبقا للقانون الثاني.

ولكن على الرغم من نجاح القانون الثاني تجريبيا، فإنه غالبا ما يبدو متناقضا؛ إذ يظهر أن الادعاء بأن المنظومات تنحو باطراد إلى الركود قول يخالف شواهد متعددة في الطبيعة، إذ ليس فيها حالات اختلال نظام واضمحلال فقط، بل فيها أيضا حالات تنظيم ذاتي ونمو. إضافة إلى هذا،هنالك في الاشتقاق الأصلي للقانون الثاني مواطن ضعف خطيرة من الناحية النظرية. وبعبارة أكثر اعتدالا، كان ينبغي ألا يطبق القانون على المدى الواسع الذي يطبق عليه الآن.

كان كثير من العلماء من مؤسسي علم الدينامية الحرارية واعين إلى نقاط الضعف تلك وسعوا إلى صياغة نظرية أكثر اكتمالا، وهي مهمة تصدى لها في القرن العشرين كل من أونساگر پريگوگين> و <S.دي گروت > و <p.مازور وغيرهم. ومع ذلك فلم تكن حتى لمقاربتهم الأكثر تطورا سوى إمكانات تطبيقية محدودة. وقد أنجزت مؤخرا مع زملائي بعض التقدم في ترسيخ أسس علم الدينامية الحرارية وتوسيع مدى تطبيقاته إلى مجالات جديدة. وأثبتنا أن القانون الثاني عام، ولكننا وجدنا أيضا أنه ليس قاتما كما تدل السمعة التي اشتهر بها.

بعيدا عن التوازن (**)

علم الدينامية الحرارية واحد من أكثر فروع الفيزياء التي يساء فهمها إلى حد بعيد؛ إذ يستعمل الناس العاديون والعلميون على حد سواء مفاهيم، مثل درجة الحرارة والضغط والطاقة، من دون إلمام بمعانيها البالغة الدقة والرهافة. لكن أولئك منا الذين سبروا غور أعماق النظرية واعون بحدة إلى الحاجة إلى الحذر. فموطن الضعف Achilles'

heel في الديناميـة الحرارية هي أنها لا تطبق إلا عندما تكون المنظومة، موضوع الدراسة في حالة هادئة تُسمى توازنا تتوقف في هذه الحالة عوامل المنظومة مثل الكتلة والطاقة والشكل، عن التغير.

فمثلا عند وضع جسمين متباينين في درجتي حرارتهما جنبا إلى جنب تنساب الحرارة من الجسم الأعلى حرارة إلى الجسم الأخفض حرارة. ويتوقف الانسياب حين يصل الجسمان إلى درجة الحرارة نفسها، أي عندما يغدوان في توازن حراري. وبدءا من هذه اللحظة لا يحدث أي تغير.

.equilibrium ويشكل وضع جليد في كأس من الماء مثالا شائعا. يذوب الجليد ويصل الماء في الكأس إلى درجة حرارة منخفضة منتظمة. لكن إذا زومنا (2) إلى المستوى الجزيئي، وجدنا نشاطا محموما الجزيئات في حركات مسعورة ومتصادمة بعضها ببعض بلا انقطاع. أما في حالة التوازن، فينظم النشاط الجزيئي نفسه مبقيا المنظومة إحصائيا في سكون. فإذا ازدادت سرعة بعض الجزيئات تباطأت الأخرى، بحيث يبقى التوزع الشامل للسرعات على حاله. وما درجة الحرارة إلا وصف لهذا التوزع. وفي الحقيقة لا يكتسب مفهوم درجة الحرارة معنى إلا في حالة توازن المنظومة أو في حالة قريبة منها بما يكفي.

إذن، لا تتعامل الدينامية الحرارية إلا مع حالات سكون لا يقوم الزمن بأي دور فيها. لكن في الواقع، طبعا، لا تبقى الطبيعة ساكنة أبدا والزمن عام في غاية الأهمية، إذ إن كل شيء في حالة تغير دائم. ربما تأتي حقيقة اقتصار الدينامية الحرارية التقليدية على حالات التوازن مفاجأة، إذ يطبق طلبة صفوف الفيزياء التمهيدية الدينامية الحرارية على منظومات دينامية، مثل محركات السيارة لحساب مقادير كالكفاءة. لكن هذه التطبيقات مبنية على افتراض ضمني يفيد أن بالإمكان

تقريب سيرورة دينامية بواسطة تتابع مثالي لحالات توازن. وبعبارة أخرى نتصور أن المنظومة دائما في حالة توازن، مع أن التوازن يتغير من لحظة إلى أخرى. نتيجة لهذا فالكفاءة المحسوبة ما هي إلا حداً أعلى فقط. وبما أن المحركات تعمل في ظروف لاتوازنية، فتكون الكفاءة المحسوبة أخفض إلى حد ما.

يصف القانون الثاني كيف يمكن لتتابع من حالات توازنية أن يكون لاعكوسا Lirreversible بحيث لا تستطيع المنظومة العودة إلى حالتها الأصلية من دون دفع ضريبة من محيطها. على سبيل المثال، لا يمكن لمكعب جليد قد ذاب العودة تلقائيا ليتشكل جليدا من جديد، إنما عليك دفع ثمن بالطاقة وذلك بوضعه في المجمدة. ولجعل هذه اللاعكوسية مقدارا كما يدخل القانون

الثاني كمية أساسية هي الإنتروپية entropy. والتعريف الشائع للإنتروپية هو درجة الفوضى في المنظومة، لكن هذا الوصف . كما سأبين بعد قليل . ربما يكون مضللا. والإنتروپية كما هي مقدار الحرارة المتبادلة في سيرورة مقسوما على درجة الحرارة. وتبقى الإنتروپية في منظومة معزولة ثابتة أو متزايدة.

فعلى سبيل المثال، يعمل محرك نموذجي بتسخير سريان الحرارة من خزان حار إلى آخر بارد، وهما كتلتان كبيرتان خارج أجهزة المحرك. إذا حافظ الخزانان على درجة حرارة ثابتة وإذا كانت أجزاء المحرك عديمة الاحتكاك، فإن المحرك يتحرك خلال دورته بطريقة كاملة العكوسية وتبقى الإنتروپية الكلية ثابتة. أما في محرك حقيقي فلا تنطبق هذه الظروف المثالية. وبناء عليه، تكون الدورة لاعكوسة وتتزايد الإنتروپية الكلية. وفي نهاية الأمر، ينفد ما لدى المحرك من طاقة متاحة فتتوقف الحرارة عن الانسياب وتصل الإنتروپية إلى قيمة عظمى. وفي هذه اللحظة يغدو الخزانان والمحرك في حالة توازن فيما بينهما ويبقيان هكذا بدءا من تلك اللحظة من دون تغير. حيث تخفق الدينامية الحرارية]

تحذير: المحتويات ربما تكون حارة وباردة في آن واحد (***)

تبدو درجة الحرارة وكأنها مفهوم بسيط وعام. تكون الأشياء إما حارة أو باردة لكن لكل منها دائما درجة حرارة. أليس كذلك؟ ليس تماما، إذ من الممكن فقط تعيين درجة حرارة المنظومات (مثل الجزيئات في كأس من الماء) هي في حالة استقرار تسمى توازنا أو في حالة قريبة منه. وكلما ابتعدت المنظومات عن التوازن، أصبح مفهوم درجة الحرارة بالتدريج أكثر التباسا.

:حالة توازن شديد •

إذا رفعت درجة الحرارة بشدة لا تبقي الطبقات الفرادي حتى في توازن تقريبي، بل تغدو الجزيئات خلطيا عشوائيا لا يعود ينطبق عليها مفهوم درجة الحرارة. وينبغي لوصف المنظومة إدخال مجموعة من متغيرات جديدة. وينبغي،

في أكثر الحالات تطرفا، تعيين سرع الجزيئات واحدا واحدا. وهذه الحالة تتطلب نظرية جديدة.

حالة توازن معتدل ••

يختل التوازن بتسخين الماء من الأسفل. وإذا كان التسخين معتدلا فتبقى الطبقات فرادى في حالة توازن تقريبي تسمى توازنا محليا ويمكن وصف حالة الماء بقيم درجة حرارة متزايدة من الأسفل إلى الأعلى. وهنا تطبق الدينامية الحرارية

اللاتوازنية التي أوجدت في القرن العشرين.

حالة توازن •••

كأس من الماء متروكة وشأنها تصل درجة حرارتها إلى درجة حرارةالغرفة. تتصادم جزيئات الماء الواحدة بالأخرى معيدة توزيع طاقاتها، بحيث يبقى النمط الشامل السرعاتها مستقرا. ومع أن الكأس تحوي بلايين البلايين من الجزيئات، فإنها تتخذ عددا واحدا فقط الوصف هذا النمط ألا وهو درجة الحرارة. هنا تطبق الدينامية الحرارية.

السرع الجزيئية

تعرف بعض الكتب المدرسية درجة الحرارة على أنها السرعة الوسطية العشوائية للجزيئات. في الحقيقة، إن درجة الحرارة هي القياس إنمط كامل من السرع. عند الابتعاد المعتدل عن التوازن ينزاح هذا النمط قليلا. لكنه عند الابتعاد الشديد يتشوه تماما جاعلا مفهوم درجة الحرارة غير ذي معنى.

القانون الثاني

القانون الثاني أشهر القوانين الأربعة للدينامية الحراريالتي تتناول دراسة الحرارة والطاقة. ففي حين أن القانون الأول ينص على أنه لا يمكنك الحصول على شيء مجانا، ينص القانون الثاني على أنه لا يمكنك حتى الحصول على شيء مقابل شيء، إذ تفقد جميع السيرورات تقريبا بعض

الطاقة على شكل حرارة،ولذلك لكي تحصل على شيء ما عليك إعطاء شيء أكثر. تكون أمثال هذه السيرورات لاعكوسة، إذ يقتضي إبطالها دفع ضريبة بالطاقة.

ونتيجة لذلك :

تكون المحركات بطبيعتها محدودة في كفاءتها الطاقية. تميل المضخات الحرارية إلى أن تكون أكثر كفاءة من الأفران، لأنها تحرك الحرارة بدلا من أن تولدها.

يكون محو ذاكرة حاسوب فعلا لاعكوسا، ولذلك فهو ينتج حرارة.

إن حقيقة أن الدينامية الحرارية التقليدية تفترض حالات توازنية تحد من مدى القابلية التطبيقية للقانون الثاني، بل ولا يمكن حتى تعريف مفهومي الإنتروپية ودرجة الحرارة إلا إذا كانت المنظومة في حالة توازن. ولا يمكن - فوق ذلك . بالنسبة إلى كثير من المنظومات أن تنمذج (3) كآلة حرارية. والكون أحدها: إذا كان الفضاء [4] في توسع، فالإنتروپية يمكن أن تتزايد بلا حدود، بحيث يقترب الكون من حالة التوازن لكنه لن يصل إليها إطلاقا [انظر: «الأصول الكوسمولوجية (الكونية) لسهم الزمن»، مجلة العلوم L العددان

2/1 (2009) ، ص 4]. وما هو مشترك في هذه المنظومات هو أنها ليست في حالة توازن ولا هي قريبة منها.

انتظام من شواش (****)

تسلك المنظومات اللاتوازنية بعض الطرق الأسرة التي لا تحيط بها النظرية التقليدية للدينامية الحرارية التي تعطي فكرة خاطئة عن أن الطبيعة ميالة إلى أن تغدو باطراد أكثر فوضى. دعنا نأخذ مثالا: تأمل جهازا مألوفا لمحمصة كهربائية، يسخن السلك الداخلي لأن مادته مقاومة إجريان التيار الكهربائي. ينص القانون الثاني على لاعكوسية هذه العملية؛ إذ لا يمكن استعمال محمصة في إعادة قطعة خبز محمصة إلى ما كانت عليه وبذلك يتولد تيار كهربائي.

ومع ذلك تستطيع القيام بشيع مشابه، إذ يمكنك أن تفرض فرق درجة حرارة [5] على طرفي سلك المحمصة، وبذلك يضمن بقاء المنظومة خارج التوازن. في الحقيقة ستولد كهرباء عندئذ.

ويشكل هذا الانعكاس الأساس لجهاز المزدوجة الحرارية [6] ، وهو جهاز يستعمل في قياس درجة الحرارة أو في توليد كهرباء.

هنالك ظاهرة ذات صلة بذلك هي التناضح العكسي reverse osmosis لإزالة الملح من مياه البحر. ففي التناضح الاعتيادي يحدث الفرق في تركيز الملح عبر غشاء فرقا في الضغط، مما يضمن تدفق الماء إلى الجهة الأكثر ملوحة ويخفف من تركيزه. ولذلك تقترب المنظومة من التوازن. أما في التناضح العكسي فيستعمل ضغط خارجي في الحفاظ على إبقاء المنظومة خارج التوازن، مما يجبر الماء على التدفق إلى الجهة الأقل ملوحة فيصبح صالحة للشرب.

المحمصة والمزدوجة الحرارية وكذلك التناضحان الأمامي والعكسي هي صور متقابلة مرآتيا السيرورات مرتبطة معا بما يسمى علاقة تبادلية reciprocity relation. نال «أونساگر لصياغته إياها جائزة نوبل في الكيمياء سنة 1968 . يظهر التناظر بين هذه السيرورات عكوسية القوانين المتحكمة في حركة جسيمات المنظومة. تنطبق هذه القوانين على الماضي والمستقبل على حد سواء. أما اللاعكوسية التي نلاحظها على المستوى الماكروي (الجاهري) (7) فتظهر فقط عندما ندرس الجسيمات بالجملة.

إن اكتشاف العلاقة التبادلية غير الكيفية التي يفكر بها الفيزيائيون حول التوازن، إذ كانوا يعدونه الحالة ذات الانتظام الأعلى. لكن المنظومة ككل قد تتمتع بالهدوء والتناظر والتنظيم، على الرغم من أن الجزيئات قد تكون في أقصى درجات الفوضى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تزودنا العلاقة التبادلية بأمثلة على إمكانية وجود منظومات لاتوازنية لكنها عالية التنظيم، إذ يمكن نشوء انتظامات وتناظرات وجزر من الهدوء في حالات بعيدة عن التوازن.

*التطبيقات

يعمل كثير من السيرورات الفيزيائية والبيوكيميائية المهمة في حالات بعيدة عن التوازن، حيث لا تجرؤ النظرية العادية للدينامية الحرارية على الولوج فيها. وقد عالج المؤلف وزملاؤه هذه النواقص.

التحكم في المنظومات الميكروية بواسطة الموانع. تكون الموانع التي تجري خلال قنوات ميكروية عرضة لتأثيرات تعتبر مهملة في قنوات أكبر، مثل انتشار الجزينات. غالبا ما تكون المعادلات القياسية الواصفة سلوك الموائع عسيرة

المعالجة. لكن النظرية اللاتوازنية الجديدة للدينامية الحرارية تلتف حول هذه التعقيدات وتمكن من حساب الصفات الأساسية اللجريان بسهولة التفاعلات الكيميائية. تتسم التفاعلات الكيميائية وسيرورات أخرى كالتبلور مثلا باللاخطية non-

linear في صميمها: وهى تحدث فقط عندما تتجاوز الطاقة عتبة معينة. وتغدو حتى أكثر تعقيدا عندما تجري في وسط كثافته وخواصه الأخرى متغيرة.

ومع ذلك تتمكن النظرية اللاتوازنية من التنبؤ بمعدلات التفاعلات.

طي الجزيئات ونشرها

تتراص خيوط الحموض الأمينية مكونة پروتينات ثلاثية الأبعاد ذات شكل يساعدها على تعيين وظيفتها الحيوية. هذه السيرورة ذات شهرة بأنها مساء فهمها. ومؤخرا نالت نظرية اللاتوازن بعض النجاح في المسألة المرتبطة بالكيفية التي تنشر بها جزيئات الرنا RNA. أغشية الخلايا. تراوغ الجزيئات في طريقها كي تتسلل خلال أغشية الخلايا مستعينة بتدابير بيولوجية غريبة متنوعة، مثل القنوات الأيونية والپروتينات التي تعمل عمل سقاطات. بيد أن

سرعة أداء هذه السيرورة طالما حيرت النظريين. وثبتين نظرية اللاتوازن أن ميزات . مثل الابتعاد الكبير والمستديم عن التوازن، إضافة إلى اللاخطية وترجحات الكثافة . والتي كان ينظر إليها سابقا على أنها تعقيدات هي في الواقع العوامل التي تمكن إحداث السيرورة.

مثال تقليدي آخر: طبقة مائع رقيق ثسخن من الأسفل. وبجريان الحرارة من الأسفل إلى الأعلى يتكون عبر الطبقة تدرج gradient حراري. ويمكن بزيادة التدرج إحداث مزيد من الابتعاد عن التوازن. يبقى المائع محافظا على سكونه عندما يكون التدرج معتدلا. لكن المائع يبدأ بالتحرك عند تدرجات أكبر. وتكون حركة الحمل [8] منتظمة وبعيدة عن الشواشية. وتتشكل خلايا سداسية صغيرة وكأنما يصبح المائع بلورة. وبالنسبة إلى تدرجات أكبر تغدو حركة المائع دوامية مضطربة. توضح هذه الظاهرة - المسماة مسألة بينارد - أن النظام يتدرج إلى شواش، ثم يعود

إلى نظام أثناء ابتعاد المنظومة عن التوازن.

وفي مثال آخر يبدأ المجرب بمائع في حالة سكون. والمائع متناح isotropic ، أي له الصفات نفسها في جميع الاتجاهات. يرغم المجرب المائع على المرور بسرعة معينة من خلال مشبك معدني. ومع

أن المائع يصبح مضطربا باتجاه واحد هو اتجاه الجريان، فإن حركته ما زالت في اتجاه واحد؛ أي إن المائع لم يعد متناحيا. وحين يزيد المجرب سرعة المائع يزداد الاضطراب أيضا

حتى يصبح أخيرا من الكبر، بحيث لا يعود المائع يجري باتجا, واحد. عند هذه اللحظة يعود المائع متناحيا. بعبارة أخرى تحول المائغ من متناح إلى لامتناح، ثم عاد متناحيا . هذا نمط من التوالي من النظام إلى الفوضى ومن ثم العودة إلى النظام.

لا تحيط نظرية الدينامية الحرارية العادية بمثل هذه الظواهر وهي عجز غدا في السنوات الأخيرة ضاغطا أكثر فأكثر، إذ اكتشف باحثون في البيولوجيا الجزيئية وفي حقل التقانة النانوية الناشئ، تنوعا كبيرا من بنى مرتبة ودائمة التغير في منظومات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية يتطلب تعليلها نظرية للدينامية الحرارية اللاتوازنية.

انهيار النظرية (*****)

بدأت جهود سابقة بتطوير نظرية كهذه من مفهوم حالات التوازن المحلي local

equilibrium ، إذ توجد منظومات ليست في توازن لكن أجزاء معينة منها ربما تكون في توازن.

على سبيل المثال، تصور عملية مزج كوكتيل بواسطة قضيب من البلاستيك. يختل التوازن بمجرد تحريك القضيب، لكنك مع هذا إذا نظرت مليا يمكن أن توجد جيوب صغيرة من المائع محافظة على تماسكها الداخلي. وإذا لم تكن القوى المؤثرة في المنظومة كبيرة جدا فيمكن لهذه المناطق الصغيرة الوصول إلى التوازن إذا لم يكن هناك تبدل كبير في صفاتها على مسافات صغيرة. تسري مفاهيم مثل درجة الحرارة والإنتروبية على جزر التوازن هذه مع أن القيم العددية لهذه المقادير يمكن أن تتباين من جزيرة إلى أخرى.

وعلى سبيل المثال عندما يسخن قضيب معدني من أحد طرفيه تنتقل الحرارة خلال القضيب نحو الطرف الآخر. يعمل الفرق في درجة الحرارة بين الطرفين وكأنه قوة تدفع جريان الحرارة، أو تدفقها، على امتداد القضيب. وتحدث ظاهرة مماثلة مع قطرة حبر في الماء. الفرق في تركيز الحبر هو القوة الدافعة التي تجعل الحبر يغزو السائل المضيف إلى أن يغدو لونا واحدا. هذه القوى خطية linear ؛ أي يتناسب تدفق الحرارة مع فرق درجة الحرارة وكذلك يتناسب تدفق الجسيمات مع فرق التركيز، ويصح هذا التناسب حتى عندما تكون القوى المؤثرة في المنظومة

شديدة، بل وحتى في كثير من الجريانات المضطربة تتناسب الإجهادات الداخلية في المائع مع تدرجات السرع. وقد وضع «أونساگر وغيره نظرية للدينامية الحرارية اللاتوازنية وبينوا أن القانون الثاني يبقى صحيحا.

لكن هذه النظرية ستنهار إذا لم تتحقق تلك الشروط، فعندما يحدث تفاعل كيميائي تتبدل مادة إلى أخرى بصورة مفاجئة . وهو تبدل مفاجئ يوصف بمعادلة لاخطية. وهنالك نمط آخر للإخفاق يقع عندما تكون المنظومة من الصغر، حيث إن الخليط الشواشي للحركات الجزيئية يفرض سلوكه ويسبب تغييرا كبيرا في صفات المنظومة عبر مسافات قصيرة. تهيمن تقلبات مثل هذه على سيرورات تحدث في منظومات صغيرة، مثل تكاثف بخار الماء ونقل الأيونات خلال قناة پروتينية

في غشاء خلية. في هذه الأمثلة، يتوقف مفهوما درجة الحرارة والإنتروپية على كونهما مقدارين معرفين جيدا. هل يقتضي إخفاق النظرية في هذه الأمثلة إخفاق القانون الثاني أيضا؟

في السنوات العديدة الماضية وسعت مع <Dرگويرا> من جامعة برشلونة] وذM.G.3. فيلار من معهد صلون كيترنگ] الدينامية الحرارية لتشمل تلك الحقول. وبينا أن كثيرا من المشكلات تتلاشى إذا غيرنا نظرتنا إليها [9]، إذ يعتمد إدراكنا لمفهوم المفاجأة على المقياس المستعمل في الزمن لمراقبة تلك السيرورات. فإذا حللنا إحدى السيرورات الكيميائية التي تبدو وكأنها آنية، فلن نرى تغييرا مفاجئا، بل تحولا تدريجيا وكأننا نراقب قطعة زبدة وهي تذوب تحت أشعة الشمس. فإذا نظر إلى السيرورة كتسلسل صور من فيلم سينمائي، فعندئذ لا تظهر التغييرات مفاجئة.

تكمن فكرة معالجتنا في تتبع المراحل الوسيطية للتفاعل باستعمال مجموعة جديدة من

المتغيرات، إضافة إلى تلك المستعملة في الدينامية الحرارية التقليدية. وضمن هذا الإطار الموسع تبقى المنظومة في توازن محلي دينامي حراري خلال السيرورة. وتثري المتغيرات الإضافية سلوك المنظومة. فهي ثعرف مشهدا لطاقة تتجول فيه المنظومة مثلما يتجول المرء في منطقة جبلية. ثقابل الوديان هبوطا في الطاقة متضمنا في بعض الأحيان شواشا جزيئيا وفي أحيان أخرى

انتظاما. ويمكن للمنظومة أن تستقر في أحد الوديان، ثم تركلها قوى خارجية إلى واد آخر. وإذا كانت في قبضة الشواش، فيمكنها أن تفلت منها لتجد الانتظام والعكس بالعكس.

النتناول بعد هذا مسألة الترجحات fluctuations . هل تخفق الدينامية الحرارية عندما تكون المنظومات مفرطة في الصغر؟ يبين مثال بسيط أن الجواب هو النفي. إذا ثقفت [10] قطعة من

النقود عددا صغيرا من المرات فقط، فربما نحصل بالمصادفة على توال من وجه القطعة. أما إذا رميناها مرات عديدة، فإن النتيجة تقترب بصورة موثوق بها من المعدل. والطبيعة تقوم غالبا بما

يشبه رمي قطع النقود. فعدد قليل من جسيمات تتحرك في وعاء لا تتصادم إلا أحيانا قليلة ويمكنها الإبقاء على فروق سرعة كبيرة فيما بينها.

لكن حتى في منظومة تبدو «صغيرة» يكون عدد جسيماتها غاية في الكبر، وعليه تتواتر التصادمات فيما بينها بكثرة بالغة وتنخفض سرعة الجسيمات إلى قيمة وسطية (مع ترجحات طفيفة). وعلى الرغم من وجود قليل من الأحداث المعزولة التي يمكن أن تبدي سلوكا لا يمكن التنبؤ به، فإن الأغلبية الساحقة منها تبدي انتظاما معينا. ولذلك فإن مقادير كالكثافة تترجح لكنها تبقى قابلة للتنبؤ بها بصورة شاملة. ولهذا السبب يستمر القانون الثاني بالتحكم في عالم الصغائر.

* * * * * **) من الآلات البخارية إلى المحركات الجزيئية

كانت الآلة البخارية هي الملهم للتطور الأصلي للدينامية الحرارية. أما في هذه الأيام فالمحركات الجزيئية الدقيقة داخل الخلايا الحية هي التي تسوق الدينامية الحرارية. وعلى الرغم من البون المقياسي الشاسع يتشارك هذان النوعان من المحركات في وظيفة عامة هي تحويل جزيئات الميوزين في (ATP) الطاقة إلى حركة. فمثلا تزود جزيئات ثالث فوسفات الأدنوسين نسيج العضلات بالوقود لتتحرك على امتداد خيط الأكتين ساحبة ألياف العضلة المربوطة بها وهنالك محركات أخرى تزود بالقدرة إما بواسطة الضوء وإما بالفروق في تركيزات البروتونات وإما بفروق في درجات الحرارة [11]، وتستطيع الطاقة الكيميائية دفع أيونات خلال قنوات في

غشاء خلية من منطقة منخفضة التركيز إلى أخرى عالية التركيز - وهو اتجاه معاكس بالضبط للحركة عند غياب ألية نقل فاعلة إن التشابه بين الآلات الكبيرة والصغيرة عميق جدا، تؤثر

ترجحات الطاقة الكيميائية في محرك جزيئي بالأسلوب نفسه الذي ثؤثر به تغيرات عشوائية في كمية الوقود على مكبس سيارة. ولذلك فإن بالإمكان نقل التقاليد السابقة في تطبيق الدينامية الحرارية على المحركات الكبيرة إلى تلك الصغيرة. ومع أن لدى الفيزيائيين أدوات رياضياتية أخرى لتحليل منظومات كهذه، فإنها تتطلب حذرا وبراعة في التطبيق. فمعادلات جريان الموائع تتطلب من الباحثين تعيينا دقيقا للشروط والحدية (12) لمنظومة وهي مهمة هرقلية (13) جدا خاصة عندما تكون الحدود شديدة التعقيد، في حين توافر الدينامية الحرارية طريقة حسابية مختصرة أثمرت منذ الآن أفكارا ثاقبة جديدة أن الحرارة تؤدي دورا في عمل القنوات الأيونية لم يقدر حق قدره أن نشوء انتظام من فوضى أبعد من أن يكون مناقضا للقانون الثاني إنما بالعكس يتلاءم تماما مع بثية أوسع للدينامية الحرارية. ونحن نقف الآن تماما على .عتبة استثمار هذا الفهم الجديد في تطبيقات عملية، وتبقى الألات الدائمة الحركة مستحيلة وسنظل نخسر في نهاية الأمر المعركة ضد التردي. لكن القانون الثاني لا يتعهد بترد مطرد، إذ إنه يتعايش بسرور تام مع التطور التلقائي لكل من الانتظام والتعقد

مراجع للإستزادة

Non-equilibrium Thermodynamics. S. R. de Groot and P. Mazur. Dover, 1984.

Thermodynamics "beyond" local Equilibrium. José M. G. Vilar and j. Miguel Rubi in

proceedings of the Nationa Academy of Sciences USA, Vol. 98, no. 20, pages 11081-11084;

September 25, 2001.

http://arixiv.org/abs/cond-mat/0110614

Active Transport: A Kinetic description Based on Thermodynamic Grounds. signe Kjelstrup,

J. Miguel Rudi and Dick Bedeaux in Journal of Theoretical Biology, Vol. 234, No. 1,

pages 7-12; May 7, 2005. http://arxiv.org/abs/cond-mat/0412493

The Mesoscopic Dynamics of the Thermodynamic Systems. David Reguera,

J. Miguel Rubi and José M. G. Vilar in Journal of physical Chemistry B, Vol. 109, No. 46,

pages 21502-21515; November 24, 2005. http://arxiv.org/abs/cond-mat/0511651

(*)THE LONG ARM OF THE SECOND LAW

(**)Out of Balance

(***)CAUTION: CONTENTS MAY BE BOTH HOT AND COLD

(****)Order from Chaos

(*****)Breaking It Down

(******)ORDER FROM DISORDER

(*******)From Steam Engines to Molecular Motors

perpetual-motion machine (1)

(2) يزوم (في علم الحاسوب) تعريب ل Zoom in وتعني: يكبر جزءا من صورة أو نص ليملا الشاشة. (التحرير)

to be modeled (3)

(4) الأصح أن يقال إن رباعي الأبعاد الزمكان spacetime في توسع. (التحرير)

temperature difference(5)

thermocouple (6)

macroscopic level (7)

convection (8)

perspective (9)

(10) flip: أي نقر بطرف الإصبع.

(11) انظر: ,Making Molecules into Motors

،

by R. Dean Astumian

Scientific American

July 2001

boundary conditions (12)

(13) نسبة إلى البطل الأسطوري هرقل، والمقصود أن المهمة ذات صعوبة استثنائية. (التحرير)

بتصرف :حسين الخالدي


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
رمضان تجليات ونفحات
الشيخ أحمد تركي

ملف كامل عن شهر الخيرات والبركات والنفحات شهر رمضان

بقلم الشيخ أحمد على تركى

مدرس القرآن الكريم بالأزهر الشريف

صوم رمضان:

هو الركن الرابع مِنْ أركانِ الإسلام ومَبانيهِ العِظام؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم:

«بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ»

وهو معلومٌ مِن الدِّينِ بالضرورة وإجماعِ المسلمين على أنَّه فرضٌ مِنْ فروضِ الله تعالى.

إيجابُ صيامِه على هذه الأُمَّةِ وجوبًا عينيًّا؛ لقوله تعالى:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإنزال القرآنِ فيه لإخراجِ الناس مِن الظلمات إلى النور، وهدايتِهم إلى سبيل الحقِّ وطريقِ الرشاد، وإبعادِهم عن سُبُلِ الغَيِّ والضلال، وتبصيرِهم بأمور دِينِهم ودُنْياهُمْ، بما يَكْفُلُ لهم السعادةَ والفلاحَ في العاجلةِ والآخرة.

قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومنها: أنَّه تُفتَّحُ فيه أبوابُ الجنَّةِ لكثرةِ الأعمال الصالحةِ المشروعةِ فيه المُوجِبةِ لدخول الجنَّة، وأنَّه تُغْلَقُ فيه أبوابُ النارِ لقِلَّةِ المَعاصي والذنوب المُوجِبةِ لدخول النار.

وأنَّه فيه تُغَلُّ وتُوثَقُ الشياطينُ؛ فتعجزُ عن إغواءِ الطائعين، وصَرْفِهِم عن العمل الصالح.

قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ».

ومنها: أنَّ لله تعالى في شهر رمضان عُتَقَاءَ مِن النار :

لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنَّ للهِ عِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ عُتَقَاءَ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ».

ومنها: أنَّ المغفرة تحصل بصيامِ رمضان بالإيمان الصادق بهذه الفريضة، واحتسابِ الأجر عليها عند الله تعالى :

لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

ومنها: أنَّه تُسَنُّ فيه صلاةُ التراويح، اقتداءً بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الذي رَغَّبَ في القيام بقوله:

«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

ومنها: أنَّ فيه ليلةً هي خيرٌ مِنْ ألف شهرٍ، وقيامها مُوجِبٌ للغفران :

لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ، وَلَا يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلَّا مَحْرُومٌ».

وقولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

ومنها: أَنَّ صيام رمضان إلى رمضان تكفيرٌ لصغائرِ الذنوب والسَّيِّئات وكبائرها :

لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

وفضلًا عن ذلك، فإنَّ مِنْ أَبْرَزِ الأحداثِ النافعة الأخرى الحاصلةِ في رمضان:

غزوةَ «بدرٍ الكبرى» التي فرَّق اللهُ فيها بين الحقِّ والباطل؛ فانتصر فيها الإسلامُ وأهلُه، وانهزم الشركُ وأهلُه، وكان هذا في السَّنَةِ الثانيةِ للهجرة، كما حَصَلَ فيه فتحُ مكَّة، ودَخَلَ الناسُ في دِينِ الله أفواجًا، وقُضِيَ على الشرك والوثنية بفضلِ الله تعالى؛ فصارَتْ مكَّةُ دارَ الإسلام، بعد أَنْ كانَتْ

مَعْقِلَ الشركِ والمشركين، وكان ذلك في السَّنَةِ الثامنةِ للهجرة، كما انتصر المسلمون في رمضان مِنْ سنة (٥٨٤هـ)، في معركةِ «حِطّين»، واندحر الصليبيون فيها، واستعاد المسلمون بيتَ المقدس، وانتصروا ـ أيضًا ـ على جيوش التَّتَارِ في «عين جالوت»، حيث دارَتْ وقائعُ هذه المعركةِ الحاسمة في شهر رمضان في سنة (٦٥٨هـ)(١٢).

هذا مُجْمَلُ ما فى شهرِ رمضان، وفضائلِه العديدة، وبركاتِه الكثيرة.

فضائل الصيام وفوائده

أنَّ فضائل الصيام وفوائده كثيرة لا تحصى، ومنها:

- الصيام سبب من أسباب التقوى :

كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

- و"الصوم جُنَّة يَستجن بها العبد من النار"

. ومعنى جُنَّة من النار: أي وقاية من النار.

- والصوم يُباعد الله النار عن وجه صاحبه:

"من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا".

فإذا كان صوم يوم واحد بهذه الأفضلية والمنزلة فما بالك بصيام شهر كامل أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر نافلة أو غير ذلك من الصيام المشروع.

- والصوم وقاية من الشَّهوات:

"يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء".

- والصوم لا مثل له ولا عدل :

فقد أوصى به النبي – صلى الله عليه وسلم –، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله مرني بأمر ينفعني الله به، قال: "عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له" .

وفي لفظ: "فإنه لا عِدلَ له".

- والصوم يُدخل الجنة من باب الريان:

لحديث سهل بن سعد رضي الله عنه يرفعه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –: "إن في الجنة بابًا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبدالله هذا خيرٌ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة. قال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم".

- والصيام كفَّارة للذنوب :

فعن حذيفة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –: "فتنة الرجل في أهله، وماله، وجاره تُكَفِّرها: الصلاة، والصيام والصدقة".

- والصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة :

فعن عبدالله بن عمرو يرفعه: "الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفِّعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه" قال: "فيشفعان".

- ويُوفَّى الصائمون أجرهم بغير حساب.

- والصوم سبب للسعادة في الدنيا والآخرة؛ فإن الصائم له فرحتان.

- وخَلوف فَمِ الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وقد دلَّ على هذه المسائل الثلاث حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: "كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته، وطعامه [وشرابه] من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك".

- والصائم دعوته لا تُرد؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "ثلاثة لا تردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم".

- وتفطير الصائمين فيه الأجر العظيم :

لحديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "مَن فطَّر صائمًا كان له مثلُ أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا".

وغير ذلك من فضائل الصيام التي لا تعد ولا تُحصى.

إن إضافة الصيام لله تعالى تشريفاً لقدره.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:

"قال الله – عز وجل –: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، ثم قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : والصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم؛ فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم. والذي نفس محمد بيده، لخُلُوف فم الصائم، أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه" (متفق عليه).

- **جُنَّة: وهي بضم الجيم، وهي ما يجنُّ الإنسان أي يستره، والمعنى أن الصوم يستر صاحبه ويقيه من ارتكاب المعاصي، والوقوع في المآثم الموجبة لدخول النار.**

- **الرفث: الفحش والرديء من القول.**

- **لا يصخب: لا يصيح.**

- **الخُلُوف: تغيير رائحة الفم.**

وفي رواية لمسلم:

"كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ – عز وجل –: إلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، ولِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فمّ الصَّائِمِ أطيب عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ".

وفي رواية الترمذي بسند حسن وهي في "صحيح الترغيب" (968) قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:

إن ربكم يقول: كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والصوم لي وأنا أجزي به، والصوم " جنة من النار، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وإن جهلَ على أحدكم جاهل وهو صائم، فليقل: إني صائم... إني صائم".

وفي رواية ابن خزيمة بسند صحيح:

"كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله: إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به، يدع الطعام من أجلي، ويدع الشراب من أجلي، ويدع لذته من أجلي، ويدع زوجته من أجلي، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان: فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربه".

قال ابن عبد البر – رحمه الله –:

كفى بقوله: "الصوم لي" فضلاً للصيام على سائر العبادات. أهـ.

وقد اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: "الصيام لي وأنا أجزي به" (مع أن الأعمال كلها لله، وهو الذي يجزي بها) على أقوال:–

ذكرها الإمام النووي – رحمه الله – في "شرح مسلم" (29/8):

• أنه لم يعبد أحد غير الله تعالى به، فلم يعظم الكفار في عصر من العصور معبود لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة، والسجود، والصدقة، والذكر... وغير ذلك.

• وقيل: لأن الصوم بعيد عن الرياء لخفائه، بخلاف الصلاة، والحج، والغزو، والصدقة... وغيرها من العبادات الظاهرة.

• وقيل: لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ. (قاله الخطابي – رحمه الله –).

• وقيل: إن الاستغناء عن الطعام من صفات الله تعالى، فتقرب الصائم بما يتعلق بهذه الصفة، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء.

• وقيل: معناه أن المنفرد بعلم مقدار ثوابه، أو تضعيف حسناته وغيره من العبادات أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها. أهـ.

وذكر الحافظ ابن حجر – رحمه الله – في "الفتح" (241/8–244) هذه الأسباب:

- وزاد وقال: إن معنى "الصوم لي"، أي: أنه أحب العبادات إليَّ والمقدم عندي.

- وقيل: إنه خالص لله، وليس للعبد فيه حظ من الثناء عليه لأجل العبادة.

- وقيل: لأن جميع العبادات توفى منها مظالم العباد إلا الصيام.

- وقيل: لأن الصوم لا يظهر، فتكتبه الحفظة كما تكتب سائر الأعمال.

ثم رجَّح الحافظ ابن حجر بعض الأجوبة على غيرها، فرجح القول:

بأن الصوم لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره، والقول بانفراد الله بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته، وقد ذهب إلى ما رجحه ابن حجر صاحب "تحفة الأحوذي". (تحفة الأحوذي: **409/3**).

وقال القرطبي – رحمه الله –:

لما كانت الأعمال يدخلها الرياء، والصوم لا يطَّلع عليه بمجرد فعله إلا الله، فأضافه الله إلى نفسه، ولهذا قال في الحديث: "يدع شهوته من أجلي".

وهذه الفضيلة تجرنا إلى فضيلة أخرى، وهي أن الصيام رفعة في الدرجات. وذلك لقوله تعالى:

"إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به".

أقسام الصيام

1-الصيام المفروض: وهو صوم رمضان أداء وقضاء، وصوم الكفارات، والصوم المنذور.

2-الصيام المسنون: كصوم الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، وصوم عاشوراء، وست من شوال، ويوم عرفة لغير الحاج.

3-الصوم المكروه: مثل: إفراد يوم الجمعة بالصيام، وإفراد يوم السبت، وصوم الدهر.

4-الصوم المحرم: مثل: صيام يومي العيدين: يوم الفطر ويوم الأضحى، وصيام أيام التشريق الثلاثة، وصيام المرأة نفلا بغير إذن زوجها.

***آداب ومسنونات الصيام**

1-المبادرة بالفطر عند تحقق الغروب: لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» [متفق عليه].

2-الفطر على رطب أو تمر أو ماء، فقد كان – صلى الله عليه وسلم – (يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات، حسا حسوات من ماء) [الترمذي، وصححه الألباني].

3–الدعاء عند الإفطار: لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» [ابن ماجة].

–وكان – صلى الله عليه وسلم – إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله» [أبو داود، وحسنه الدار قطني].

4–تأخير السحور والحرص عليه: لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «تسحروا؛ فإن في السحور بركة» وروى أنس عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال: (تسحرنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قام إلى الصلاة. قال أنس: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال زيد: قدر خمسين آية) [متفق عليه].

5–كف اللسان والجوارح عن المحارم، لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث، ولا يجهل، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم» [متفق عليه].

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» [رواه البخاري].

6–تفطير الصائمين: لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «من فطر صائما، فله مثل أجرهن غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء» [الترمذي، وصححه].

7–الجود وكثرة الصدقة، فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – في رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة [متفق عليه].

وزاد أحمد: كان لا يسأل عن شيء إلا أعطاه.

8–كثرة تلاوة القرآن ومدارسته: لفعل النبي – صلى الله عليه وسلم – ذلك في رمضان.

9–قيام الليل: لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

10–والسنة أن يصلي الصلاة كاملة مع الإمام لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «من قام مع إمامه حتى ينصرف، كتب له قيام ليلة» [أبو داود والترمذي].

11–ولا بأس بحضور النساء صلاة التراويح في المساجد، بشرط التزام الأدب والحياء والحشمة، غير متبرجات، ولا متعطرات.

12–تحري ليلة القدر وإحياؤها بالعبادة: لقوله – صلى الله عليه وسلم –: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»[متفق عليه].

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

وقيامها إنما هو إحياؤها بالصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء والاستغفار والتوبة.

فائدة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» [أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

قال ابن رجب: وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر، لأن العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحاً، ولا حالاً، ولا مقالاً، فيرجعون إلى سؤال العفو، كحال المذنبين المقصرين.

13–الاعتكاف: فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يعتكف العشر الأواخر من رمضان [متفق عليه].

14–ازدياد الاجتهاد في العشر الأواخر: لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله) [لفظ البخاري] وفي رواية لمسلم عنها قالت: (كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره).

آداب الصيام

للصيام آدابٌ ينبغي التحلِّي بها ليحصلَ التوافقُ مع أوامر الشَّرْعِ، ويُرتَّبَ عليه مقصودُه منه، تهذيبًا للنَّفس وتزكيتها، فيجتهدُ الصائمُ في أدائها كاملةً، والمُحافَظةِ عليها تامَّةً؛ إذ كمال صيامه موقوفٌ عليها، وسعادتُه منوطةٌ بها، فمِنْ هذه الآدابِ الشرعية التي يُراعيها في صيامه:

أوَّلًا:

استقبالُ شهرِ رمضانَ بالفرح والغِبْطةِ والسرور؛ لأنَّه مِنْ فضلِ الله ورحمته على الناس بالإسلام، قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس]، ويحمد اللهَ على بلوغه، ويَسْألُ اللهَ تعالى إعانَتَه على صيامه، وتقديمِ الأعمالِ الصالحة فيه، كما يُسْتَحَبُّ له الدعاءُ عند رؤيةِ أيِّ هلالٍ مِنَ السَّنَةِ؛ لحديثِ عبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما قال:

كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا رأى الهلالَ قال: اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، رَبُّنَا وَرَبُّكَ اللهُ».

على أَنْ لا يَسْتقبِلَ الهلالَ عند الدعاء، ولا يَرْفَعَ رأسَه إليه، ولا يَنْتصِبَ له، وإنَّما يَسْتقبِلُ بالدعاء القِبْلَةَ.

ثانيًا: ومِنَ الآداب المُهِمَّةِ أَنْ لا يصوم قبل ثبوتِ بدايةِ الشهر على أنَّه مِنْ رمضان، ولا يصومَ بعد نهايته على أنَّه منه؛ فالواجبُ أَنْ يصومه في وقته المحدَّدِ شرعًا؛ فلا يَتقدَّمُ عليه ولا يَتأخَّرُ عنه؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوُا الهِلَالَ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ».

وفي قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِذَا رَأَيْتُمُ الهِلَالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا».

ثالثًا:

المُداوَمةُ على السَّحور لبركته، واستحبابُ تأخيره؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم:

«تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً».

وقد وَرَدَ في فضلِه وبركتِه ـ أيضًا ـ قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «البَرَكَةُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الجَمَاعَةِ وَالثَّرِيدِ وَالسَّحُورِ»

وقولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى المُتَسَحِّرِينَ».

وقد جَعَلَهُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عبادةً يتميَّزُ بها أهلُ الإسلام عن أهل الكتاب، فقال: «فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ».

والأفضلُ أَنْ يَتسحَّرَ الصائمُ بالتَّمْر؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «نِعْمَ سَحُورُ المُؤْمِنِ التَّمْرُ».

فإِنْ لم يَتَيَسَّرْ له التمرُ تَحَقَّقَ سحورُه ولو بِجرْعَةٍ مِنْ ماءٍ؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «تَسَحَّرُوا وَلَوْ بِجَرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ».

ويبدأ وقتُ السَّحورِ قُبَيْلَ الفجر، وينتهي بتَبيُّنِ الخيط الأبيض مِن الخيطِ الأسود مِن الفجر، وإذا سَمِعَ النداءَ والإناءُ على يده، أو كان يأكل؛ فَلَهُ أَنْ يَقْضِيَ حاجتَه منهما، ويَسْتكمِلَ شرابَه وطعامَه؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِذَا سَمِعَ أَحَدُكُمُ النِّدَاءَ وَالإِنَاءُ عَلَى يَدِهِ فَلَا يَضَعْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهُ».

ففي هذه الرُّخصةِ الواردةِ في الحديثِ إبطالٌ لبدعةِ الإمساكِ قبل الفجر بنحوِ عَشْرِ دقائقَ أو ربعِ ساعةٍ. وإلزامُ التعبُّدِ بتوقيتِ الإمساكيةِ الموضوعةِ بدَعْوَى خشيةِ أَنْ يُدْرِكَ الناسَ أذانُ الفجرِ وهُمْ على سحورهم لا أصلَ له في أحكام الشريعة وآدابِها.

هذا، ويُسْتَحَبُّ تأخيرُ السحور؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُعَجِّلَ إِفْطَارَنَا، وَنُؤَخِّرَ سَحُورَنَا، وَنَضَعَ أَيْمَانَنَا عَلَى شَمَائِلِنَا فِي الصَّلَاةِ».

وكان بين فراغه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ السحور ودخوله في الصلاة قَدْرُ خمسين آيةً مُتوسِّطةً.

فقَدْ روى أَنَسٌ عن زيد بنِ ثابتٍ رضي الله عنه قال: «تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ»، قُلْتُ: «كَمْ كَانَ بَيْنَ الأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟» قَالَ: «قَدْر خَمْسِينَ آيَةً».

وكان دَأْبُ الصحابةِ رضي الله عنهم تأخيرَ السحور؛ فعن عمرِو بنِ ميمون الأوديِّ قال: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أَسْرَعَ النَّاسِ إِفْطَارًا وَأَبْطَأَهُمْ سَحُورًا».

رابعًا:

المُحافَظةُ على تعجيلِ الفِطْرِ لإدامةِ الناسِ على الخير؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ».

وقولِه عليه الصلاةُ والسلام: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى سُنَّتِي مَا لَمْ تَنْتَظِرْ بِفِطْرِهَا النُّجُومَ».

وقولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَا يَزَالُ الدِّينُ ظَاهِرًا مَا عَجَّلَ النَّاسُ الفِطْرَ؛ لأَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤَخِّرُونَ».

وقد بيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم معنى هذا التعجيلِ في قوله: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا ـ من جهة الشرق ـ وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ».

* آداب الفطر:

هذا، وتَقْتَرِنُ بالفِطْرِ جملةٌ مِنَ الآداب الشرعية، يُسْتَحَبُّ للصائم الالتزامُ بها، اقتداءً بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي:

١ ـ تقديم الفطر على الصلاة؛ لقولِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قَطُّ صَلَّى صَلَاةَ المَغْرِبِ حَتَّى يُفْطِرَ وَلَوْ عَلَى شَرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ».

٢ ـ فِطْرُه على رُطَباتٍ، فإنْ لم يجد فعلى تمراتٍ، فإنْ لم يجد فعلى الماء؛ لحديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٍ فَعَلَى تَمَرَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ».

٣ ـ دعاءُ الصائم عند الفطر بما ثَبَتَ عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه كان يقول ـ عند فِطْرِه ـ: «ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ العُرُوقُ، وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ».

خامسًا:

ومِنْ آداب الصيام ـ أيضًا ـ: استحبابُ المُحافَظةِ على السِّواك مُطلقًا، سواءٌ كان المُكلَّف صائمًا أو مُفْطِرًا، أو استعمله رطبًا أو يابسًا، أو كان في أوَّلِ النهار أو في آخِرِه؛ للحضِّ عليه عند كُلِّ صلاةٍ، وعند كُلِّ وضوءٍ، في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم:

«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ».

وفي روايةٍ: «عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ».

ولم يخصَّ الصائمَ مِنْ غيرِه، قال ابنُ عمر رضي الله عنهما: «يَسْتَاكُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ».

وَضِمْنَ هذا الحكمِ يقول ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ: «...وأمَّا السِّوَاكُ فجائزٌ بلا نِزاعٍ، لكنِ اختلفوا في كراهيته بعد الزوال على قولين مشهورَيْن، هُمَا روايتان عن أحمد، ولم يَقُمْ على كراهيته دليلٌ شرعيٌّ يصلح أَنْ يَخُصَّ عمومات نصوصِ السواك».

سادسًا:

الاجتهاد في فعلِ الخيرات وتكثيفِ العبادات؛ فقَدْ كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في شهر رمضان يُكْثِرُ مِنْ أنواع العبادات، وأفعالِ الخير، وأَضْرُبِ البرِّ والإحسان؛ ففي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

«كَانَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام كَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».

وكان صلَّى الله عليه وسلَّم يُكْثِرُ مِنْ قراءة القرآن فيه، ويُطيلُ قيامَ رمضان أَكْثَرَ مِمَّا يُطيلُه في غيره، ويجودُ بالصدقات والعطايا وسائرِ أنواعِ الإحسان، ويجتهدُ في العشر الأواخر ـ اعتكافًا وقيامًا وقراءةً وذِكْرًا ـ ما لا يجتهدُ في غيره؛ ففي الحديث: «إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ».

ومِنَ العباداتِالتي نَدَبَ إليها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم العمرةُ في رمضان؛ فَلَهَا ثوابٌ عظيمٌ يُساوي ثوابَ حَجَّةٍ؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم لعائشة رضي الله عنها: «فَإِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فَاعْتَمِرِي؛ فَإِنَّ عُمْرَةً فِيهِ تَعْدِلُ حَجَّةً»..

ويُضاعَفُ أجرُ الصلاةِ في مَسْجِدَيْ مَكَّةَ والمدينةِ؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ».

فضلًا عن تكفيرِ الذنوب والسيِّئات بتَعاقُبِ العمرات على ما ثَبَتَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قوله: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا».

سابعًا:

اجتنابُ كُلِّ ما لا يُحقِّقُ الغايةَ مِنَ الصيام، وذلك بأَنْ يَحْترِزَ الصائمُ عن كُلِّ ما نَهَى الشرعُ عنه مِنْ سَيِّئِ الأقوال، وقبيحِ الأفعال المحرَّمةِ والمكروهة، في كُلِّ الأوقات، وبالأَخَصِّ في شهر رمضان التي يَعْظُمُ قُبْحُهَا في حقِّ الصائم؛ لذلك وَجَبَ عليه أَنْ يَكُفَّ لسانَه عمَّا لا خيرَ فيه مِنَ الكلام: كالكذب، والغِيبةِ، والنميمة، والشَّتْمِ، والخصام، وتضييعِ وقته بإنشاد الأشعار، وروايةِ الأسمار، والمُضْحِكاتِ، والمدحِ والذمِّ بغير حقٍّ، كما يجب عليه أَنْ يَكُفَّ سَمْعَه عن الإصغاء إليها، والاستماعِ إلى كُلِّ قبيحٍ ومذمومٍ شرعًا، ويعملَ جاهدًا على كَفِّ نَفْسِه وبدنه عن سائرِ الشهوات والمحرَّمات: كغضِّ البصر ومَنْعِه مِنَ الاتِّساع في النَّظر، وإرسالِه إلى كُلِّ ما يُذَمُّ ويُكْرَهُ، وتجنيبِ بقيَّةِ جوارحه مِنَ الوقوع في الآثام؛ فلا يَمُدُّ يدَه إلى باطلٍ، ولا يمشي برجله إلى باطلٍ، ولا يأكل إلَّا الطيِّباتِ مِنْ غير إسرافٍ ولا استكثارٍ؛ ليصرفَ نَفْسَه عن الهوى، ويُقوِّيَها على التحفُّظِ مِنَ الشيطان وأعوانه، ومع ذلك كُلِّه يَبْقَى قلبُه ـ بعد الإفطار وفي آخرِ كُلِّ عبادةٍ ـ دائرًا بين الرجاء في قَبولِ صيامِه ليكون مِنَ المقرَّبين، وبين الخوف مِنْ ردِّه عليه فيكون مِنَ المَمْقُوتِينَ.

هذا، وقد جاءَتْ في هذه المَعاني نصوصٌ شرعيةٌ تُرَهِّبُ الصائمَ مِنْ آفات اللسان والجوارح منها: قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ».

وليس المقصودُ مِنْ شرعيةِ الصوم نَفْسَ الجوعِ والعطش، بل ما يَتْبَعُه مِنْ كسرِ الشهوات وتطويعِ النفس الأمَّارةِ للنَّفس المُطْمَئِنَّة؛ لذلك قال صلَّى الله عليه وسلَّم:

«رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ».

فالصائمُ حقيقةً هو مَنْ صام بَطْنُه عن الطعام، وجوارحُه عن الآثام، ولسانُه مِنَ الفُحْشِ ورَدِيءِ الكلام، وسمعُه عن الهذيانِ، وفَرْجُه عن الرَّفَثِ، وبصرُه عن النَّظَرِ إلى الحرام؛ فإِنْ تَكَلَّمَ لَمْ يَنْطِقْ بما يَجْرَحُ صومَه، وإِنْ فَعَلَ لم يفعل ما يُفْسِدُ صومَه؛ فيخرجُ كلامُه نافعًا وعملُه صالحًا.

قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ».

وفي حديثٍ آخَرَ مرفوعًا: «لَا تُسَابَّ وَأَنْتَ صَائِمٌ، فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، وَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاجْلِسْ».

هذا، وقد لا يحصل الصائمُ على ثوابِ صومه مع تَحَمُّلِه التعبَ بالجوع والعطش؛ إذا لم يُؤَدِّ صومَه على الوجه المطلوب بترك المنهيَّات؛ إذ ثوابُ الصومِ ينقص بالمَعاصي، ولا يَبْطُلُ إلَّا بمُفْسِداته، وفي الأحاديثِ المتقدِّمةِ ترغيبُ الصائم في العفو عن زلَّات المُخْطِئين، والإعراضِ عن إساءةِ المُسيئين.

ثامنًا:

إعدادُ الإفطارِ للصائمين، الْتماسًا للأجر والثواب المُماثِلِ لأجورهم، وقد صحَّ في فضلِ ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا».

تاسعًا:

المُحافَظةُ على صلاة القيام وأداؤُها مع الجماعة؛ فينبغي الحرصُ عليها وعدَمُ التخلُّفِ عنها أو تركِها؛ لأنَّه يفوته خيرٌ كثيرٌ، وقد كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُرغِّبُ أصحابَه في قيامِ رمضان مِنْ غيرِ أَنْ يأمرهم بعزيمةٍ، ويقولُ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وخاصَّةً وأنَّ في العَشْرِ الأواخر مِنَ الشهرِ ليلةً هي خيرٌ مِنْ ألفِ شهرٍ، جَعَلَ اللهُ فيها الثوابَ العظيمَ لمن قامَها وغفرانَ ما تَقدَّمَ مِنَ المَعاصي والذنوب، قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وقد جاء في فضلِ قيامِ رمضان جماعةً قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَلَّى مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ حُسِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ».

لذلك يحرصُ الصائمُ على المُحافَظةِ عليه في الجماعةِ لئلَّا يَحْرِمَ نَفْسَهُ مِنْ هذا الخيرِ العظيم، والأجرِ العميم.

ما يباح للصائم

بعض ما يباح للصائم:

(1) يباح للصائم نزول الماء والانغماس فيه، سواء حمامات السباحة (إذا أمنت المخالفات الشرعية) أو غيرها من مياه البحار والأنهار، وماء الدش وغيره: سواءً كان ذلك من العطش أو الحر.

(2) يباح له الاكتحال، والقطرة ونحوهما مما يدخل العين:

سواء وجد طعمه في حلقه أم لم يجده (خلافا للمالكية ومن وافقهم)، لأن العين ليست منفذا معتادا للجوف.

(3) تباح الحقنة مطلقًا، ما دامت تؤخذ دواء ،سواء أكانت في العروق، أم تحت الجلد، فإنها وإن صلت إلى الجوف، فإنها تصل إليه من غير المنفذ المعتاد. وكذلك الحقنة الشرجية لا تفطر الصائم. فإنها لا تغذي، بل تستفرغ ما في البدن.

(4) يباح له ما لا يمكن الاحتراز عنه: كبلع الريق وغبار الطريق، وما شابه ذلك.

(5) يباح له وضع وشم الروائح الطيبة .

(6) يباح له أن يأكل ويشرب ويجامع زوجته طوال الليل حتى الأذان ، فإن دخل الوقت (أو أذن المؤذن) امتنع فورا عن الأكل والشرب والجماع.

أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، والبخاري عن عائشة رضي الله عنها، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ بِلاَلًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ".

ومعنى(بليل): أي قبل أن يطلع الفجر. ومعنى(فكلوا واشربوا): استمروا في الأكل والشرب إذا كنتم تتسحرون.

وفي رواية مسلم: "ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا".

ومعناه أن بلالا كان يؤذن قبل الفجر وينتظر بعد أذانه للدعاء ونحوه، ثم يرقب الفجر فإذا قارب طلوعه نزل فأخبر ابن أم مكتوم (لأنه كان ضريرا)، فيتأهب ابن أم مكتوم للطهارة وغيرها ثم يرقى ويشرع في الأذان مع أول طلوع الفجر.

لكن الأولى له أن ينتهي من ذلك قبيل الأذان بلحظات حتى يكون في مأمن من الوقوع في المحظور، والأمر هنا بالأكل والشرب للإباحة فقط، وليس للندب والاستحباب!

فلا يتعمد الأكل والشرب حتى يسمع الأذان بدعوى إحياء السنة!

(7) يباح له أن يجامع زوجته قبل الأذان ويؤخر الاغتسال إلى ما بعد الأذان ، فالمحظور هو الجماع بعد الأذان ، لكن لو أذن المؤذن وهو جنب فلا شيء عليه إلا الاغتسال.

أخرج مسلم في صحيحه، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّهُ سَأَلَ أم سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنِ الرَّجُلِ يُصْبِحُ جُنُبًا أَيَصُومُ، قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ احْتِلَامٍ، ثُمَّ يَصُومُ".

ومعنى يصبح جنبا: أي يطلع الفجر قبل أن يغتسل.

وهذا أيضا على سبيل الرخصة لمن احتاج إلى ذلك، وليس قربة إلى الله تعالى، ولا إحياء للسنة أن يتعمد تأخير الاغتسال إلى ما بعد الأذان.

(8) يباح للمرأة الحائض والنفساء التي انقطع عنها دم الحيض أو النفاس أن تنوي الصيام، حتى لو تأخر الغسل إلى ما بعد الأذان.

(9) يباح للمرأة تذوق الطعام أثناء الصيام عند الحاجة لذلك، لكن بشرط عدم وصول أي شيء إلى الجوف.

(10) تباح البخاخة في الفم أو الأنف لأصحاب مرض الربو.

(11) يباح للصائم استعمال معجون الأسنان، والسواك ، طوال النهار، فإنه لا يفطر الصائم، ولكن على الصائم التحرز من دخول شيء منه إلى جوفه، فإن غلبه شيء من ذلك بدون قصد فلا قضاء عليه.

مكروهات الصيام:

يكره في حق الصائم بعض الأمور التي قد تؤدي إلى جرح صومه، ونقص أجره، وهي:

(1) المبالغة في المضمضة والاستنشاق:

وذلك خشية أن يذهب الماء إلى جوفه؛ أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح، عَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبِرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَالِغْ فِي الِاسْتِنْشَاقِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا".

فإن بالغ في المضمضة فدخل ماء إلى جوفه بطل صيامه ، لأنه خالف السنة، ولكن لو دخل الماء دون قصد ولا مبالغة في المضمضة ولا الاستنشاق فلا شيء عليه.

(2) القُبْلَة لمن تحرك شهوته، وكان ممن لا يأمن على نفسه:

فيكره للصائم أن يقبل زوجته؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى إثارة الشهوة التي تجر إلى فساد الصوم بالإمناء أو الجماع، فإن أمن على نفسه من فساد صومه فلا بأس؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقبّل وهو صائم، قالت عائشة رضي الله عنها: "وكان أملككم لأَرَبِه"، "أي: حاجته" .

وكذلك عليه تجنب كل ما من شأنه إثارة شهوته وتحريكها؛ كإدامة النظر إلى الزوجة، أو النظر إلى الصور أو مشاهدة الفيديوهات التي لا يجوز النظر إليها في أي وقت ،في رمضان أو غيره، أو التفكر في شأن الجماع؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى الإمناء، أو الجماع.

(3) يحرم الكلام القبيح والغيبة والنميمة والكذب عموما وتشتد الحرمة في حق الصائم:

فإن شاتمه غيره، قال: إني صائم؛ لما أخرجه أبو داود بسند صحيح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " الصِّيَامُ جُنَّةٌ إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَجْهَلْ، فَإِن امْرُؤٌ قَاتَلَهُ، أَوْ شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ "..

(4) الحجامة ، والفصد(أخذ الدم): لأن ذلك يضعف الصائم .

(5) تأخير الفطر وتعجيل السحور إلا لعذر:

يكره تأخير الفطر إن قصده ورأى فيه فضيلة، وإلا فلا بأس به، لما رواه أحمد في مسنده، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْإِفْطَارَ، وَأَخَّرُوا السُّحُورَ ".وهو حديث حسن بشواهده.

(6) الوصال:

وهو أن يصوم الشخص يومه فإذا دخل الليل امتنع من الأكل والشرب، ثم أصبح من الغد صائمًا فيصير واصلاً بين اليومين بالإمساك لا بالصوم؛ لأنه قد أفطر بدخول الليل وإن لم يأكل.

(7) الإكثار من النوم بالنهار:

فشهر رمضان شهر عبادة ليلاً ونهارًا، أما بالليل فبالقيام بصلاة التراويح وقراءة القرآن، وأما بالنهار فبالصيام، والجزاء على ذلك وردت فيه نصوص كثيرة، وفى حديث واحد جمع ثواب الصيام

والقرآن، فقد أخرج أحمد في مسنده، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

"الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ "، قَالَ: " فَيُشَفَّعَانِ"...

ولكن لو نام الصائم طوال النهار فصيامه صحيح، وليس حرامًا عليه أن ينام كثيرًا ما دام يؤدى الصلوات في أوقاتها، وقد يكون النوم لبعض الناس مانعًا له من التورط في أمور لا تليق بالصائم، وتتنافى مع حكمة مشروعية الصيام، وهى جهاد النفس ضد الشهوات والرغبات التي من أهمها شهوتا البطن والفرج، ويدخل في الجهاد عدم التورط في المعاصي مثل الكذب والزور والغيبة..

فقد أخرج البخاري في صحيحه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ".

(8) الزيادة عن حد الاعتدال في الطعام والشراب ، وسائر المباحات، فالزيادة عن حد الاعتدال عموما من المكروهات.

(9) تضييع الوقت أمام المسلسلات والأفلام الخالية من المخالفات الشرعية، أما ما كان فيه عري ومخالفات شرعية فحرام غير جائز وتشتد الحرمة في رمضان لشرف الزمان.

(10) ترك سنة أو أكثر من سنن الصيام التي سنذكرها لاحقا إن شاء الله.

مبطلات الصيام:

المبطلات قسمان:

(أولا) : ما يبطل الصيام، ويوجب القضاء:

الأكل والشرب عامدًا ذاكرًا لصومه :

فإن أكل أو شرب ناسيًا، فإنه يتم صومه ولا قضاء عليه، وهذا مذهب الجمهور، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ" [أخرجه مسلم].

وقوله:(فإنما الله أطعمه وسقاه): كناية عن عدم الإثم؛ لأن الفعل إذا كان من الله كان الإثم منتفيا.

وقال مالك وابن أبي ليلى: إن من أكل ناسيا فقد بطل صومه ولزمه القضاء.

والحديث حجة عليهم.

ويستوي في ذلك الفرض والنفل، عند الجمهور، لعموم الأدلة.

القيء عمدا:

فإن غلبه القيء وخرج بنفسه، فلا قضاء عليه ولا كفارة، بلا خلاف، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"مَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ قَضَاءٌ، وَمَنْ اسْتَقَاءَ عَمْدًا فَلْيَقْضِ" ..

[أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما بسند صحيح] .

ومعنى "ذرعه" : أي سبقه، وغلبه.

الحيض والنفاس:

فمن حاضت أو نفست ولو في اللحظة الأخيرة من النهار، فسد صومها، وعليها قضاء هذا اليوم، بإجماع العلماء.

تعمُّد الاستمناء (العادة السرية) :

وهو تعمد إخراج المني بما دون الجماع، كالاستمناء باليد أو نحو ذلك بقصد إخراجه بشهوة، فإن أنزل بشيء من ذلك متعمدًا ذاكرًا لصيامه فسد صومه ولزمه القضاء عند الجمهور.

وخالف ابن حزم – وبعض المتأخرين – الجمهور فقالوا لا يبطل الصيام بالاستمناء بغير جماع .

ومذهب الجمهور أرجح، ويُستدل له بقول الله تعالى في الحديث القدسي في شأن الصائم: "يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي".

والاستمناء شهوة وكذا خروج المني.

أما إذا تفكر أو نظر فأنزل، ولم يتعمد بتفكره أو نظره إلى امرأته ونحو ذلك إنزال المني، لم يفسد صومه.

وكذلك الاحتلام (نزول المني أثناء النوم) لا يؤثر على صحة الصيام ؛ لأن النائم غير مكلف.

(رفع القلم عن ثلاثة :عن النائم حتى يستيقظ)

نيَّة الإفطار :

فإن نوى – وهو صائم– إبطال صومه، وعزم على الإفطار جازمًا متعمدًا ذاكرًا أنه في صوم، بطل صومه، وإن لم يأكل أو يشرب لأن " لكل امرئ ما نوى"..

ولأن الشروع في الصوم لا يستدعي فعلاً سوى نية الصوم، فكذلك الخروج لا يستدعي فعلاً سوى النية، ولأن النية شرط أداء الصوم، وقد أبدله بضده، وبدون الشرط لا تتأدَّى العبادة.

وهذا مذهب الشافعية وظاهر مذهب أحمد وأبي ثور والظاهرية وأصحاب الرأي.

إلا أن أصحاب الرأي قالوا: إن عاد فنوى قبل انتصاف النهار أجزأ، بناء على أصلهم أنه تصح النية من النهار.

الرِّدَّة عن الإسلام :

لا أعلم خلافًا بين أهل العلم في أن من ارتد عن الإسلام في أثناء الصوم أنه يفسد صومه، وعليه القضاء إذا عاد إلى الإسلام، سواء أسلم أثناء اليوم أو بعد انقضائه، لقوله تعالى:" لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ".

ولأن الصوم عبادة من شرطها النية فأبطلتها الردة.

(ثانيا): ما يبطل الصيام، ويوجب القضاء والكفَّارة: هو الجماع لا غيره:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت، قال: « ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تجد رقبة تعتقها؟"، قال: لا، قال: "فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟"

قال: لا، قال: " فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟" قال: لا، قال: فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما نحن على ذلك أُتى النبي صلى الله عليه وسلم بعَرَق فيها تمر، قال: "أين السائل؟" فقال: أنا، قال: "خذ هذا فتصدق به"، فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين

لابتيها – يريد الحرتين– أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، ثم قال: "أطعمه أهلك".

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن جماع الصائم في نهار رمضان عامدًا مختارًا بأن يلتقي الختانان وتغيب الحشفة في أحد السبيلين (القبل أو الدبر المحرم) مفطر، يوجب القضاء والكفارة أنزل أو لم ينزل.

ومستند الجمهور في إيجاب القضاء على المُجامع في رمضان هو زيادة وردت في بعض طرق هذا الحديث وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في آخره:" وصم يومًا مكانه".

وهذه الزيادة انفرد بها ابن ماجه، وفي إسنادها عبد الجبار بن عمر وهو ضعيف ضعفه ابن معين وأبو داود والترمذي.

وقال البخاري: عنده مناكير. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال الدارقطني : متروك.

وذهب ابن حزم إلى أن عليه الكفارة فقط دون القضاء.

ويوجد أشياء أخرى محل خلاف بين العلماء ولكن نكتفى بهذا القدر.

إخراج زكاة الفطر نقداً

هل يجوز إخراجها مالاً، وقد اختلف فيها العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول:

المنع والتحريم، وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء، واستدلوا بحديث ابن عمر: (كنا نخرجها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، صاعا من تمر، أو صاعا من شعير....) الحديث.

القول الثاني:

الجواز، وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة من أصحاب المذاهب الأربعة، وذهب إلى هذا: الثوري، والبخاري، والخليفة عمر بن عبدالعزيز، واستدلوا: بسكوت النبي صلى الله عليه وسلم، عنها.

وأيضا: بحديث معاذ، وعليه بوب البخاري، وهو أن معاذ أخذ من أهل اليمن، اللبيس والثياب، وقال: هذا أنفع لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال ابن رشيد: أن البخاري وافق الحنفية، على كثرة مخالفته لهم. (فتح الباري: 5/57).

وأيضا: بفعل عمر بن عبدالعزيز: عندما أرسل عامله، أن يأخذ منهم القيمة في زكاة الفطر، فروى ابن أبي شيبة في (المصنف) في كتاب الزكاة / باب في إعطاء الدراهم في زكاة الفطر، قال: حدثنا وكيع عن قرة قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز: "في صدقة الفطر نصف صاع عن كل إنسان أو قيمته نصف درهم".

وكتب – رحمه الله – إلى عامله في البصرة: أن يأخذ من أهل الديون من أعطياتهم من كل إنسان نصف درهم.

وكان هذا الفعل منه وأصحاب رسول الله متوافرون، فلم يعلم عن أحد الاعتراض سراً أو جهراً!! فدل أنهم مقرون له؛ لعدم الاعتراض، ولأنهم النصحة الكملة الذين لا يخافون في الله لومة لائم،

ولأن فعل عمر كان مشهوراً غير محصور؛ إذ هو خليفة المسلمين، وخير من يفهم النصوص هم السلف الكرام، فافهم!

وممن قال بذلك الحسن البصري – رحمه الله – حيث روى عنه ابن أبي شيبة: "لا بأس أن تعطى الدراهم في صدقة الفطر".

وهو قول الإمام أبو إسحاق السبيعي، قال: أدركتهم، وهم يؤدون القيمة في زكاة الفطر) (رواه ابن أبي شيبة: ٣/ ٦٥).

وممن رأى هذا الرأي الحافظ ابن أبي شيبة، حيث ترجم له في مصنفه بقوله: (باب إعطاء الدراهم في زكاة الدراهم في زكاة الفطر).

فعلامَ نحمل كلامهم؟! وبعضهم قد أدرك ثلة من الصحابة، وبعضهم من أكابر التابعين.

وممن رأى صواب هذا القول:

الإمام القرطبي، حيث أوردَ عند تفسيره لآية مصارف الزكاة، وعند حديث: (أَغنوهم عن السؤال في هذا اليوم) فقال: وإنما أراد أن يغنوا بما يسد حاجتهم، فأَي شيء سد حاجتهم جاز، قال تعالى: "خذ من أموالهم صدقة"، فلم يخص شيئا من شيء.

بل روي عن بعض الصحابة كمعاوية بن أبي سفيان، حيث قال: (إني لأرى مدين من سمراء الشام تعدل صاعاً من تمر).

القول الثالث:

جواز إخراجها مالاً، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: "وأما إذا أعطاه القيمة ففيه نزاع: هل يجوز مطلقاً؟

أو لا يجوز مطلقاً؟

أو يجوز في بعض الصور للحاجة أو المصلحة الراجحة؟

على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره، وهذا القول هو أعدل الأقوال" – يعني القول الأخير– .(مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٧٩).

وقال في موضع آخر:

"وأما إخراج القيمة للحاجة أو المصلحة الراجحة أو العدل فلا بأس به".

(مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٨٢).

والذي يترجح مما مضى – والله أعلم – القول الثالث، وهو جواز إخراجها مالاً للحاجة؛ لموافقته للدليل، وإعماله للأدلة، والجمع بينها، وفيه تتحقق سماحة الإسلام ومقاصده، فمتى ما اقتضت الحاجة، وكان الانتفاع بالمال أكثر من الطعام، فيخرج المال، بلا ضير، بل يكون هو الأفضل..

قلت:

وحال الناس اليوم، الاحتياج إلى المال أكثر من الطعام، بل رأينا من يأخذ الزكاة من الناس طعاماً، ثم يذهب يبيعها بنصف قيمتها ربما أو أقل، لحاجته إلى المال: من ملابس، وغيرها.

فاقرب الأقوال واصلحها هو

القول الثالث، وهو جواز إخراجها مالاً للحاجة .

نقل الزكاة من بلد إلى بلد:

(1) زكاة المال تتعلق بالمال فيخرجها في البلد التي يستثمر فيها المال ، وزكاة الفطر تتعلق بالبدن فيخرجها المسلم حيثما وجد، فإن لم يكن قد أخرجها فيخرجها في المكان الذي أفطر فيه آخر يوم من رمضان.

(2) الأَصل أن تؤدى زكاة المال في البلد الذي فيه المال؛ لأنه محل أطماع الفقراء، وهو أيسر للدفع، وهم أقرب إليه من البعيد، والأقارب أولى من الأباعد، رعاية لحرمة الجوار ، وتنظيمًا لمحاربة الفقر ومطاردته ، وتدريبًا لكل بلد على الاكتفاء الذاتي، وعلاج مشاكله في داخله، ولأن فقراء البلد قد تعلقت أنظارهم وقلوبهم بهذا المال، فكان حقهم فيه مقدّمًا على حق غيرهم.

(3) يجوز نقل الزكاة إلى بلد آخر لمصلحة شرعية راجحة كأن يكون في البلد الآخر أقارب فقراء لمن عليه الزكاة ، أو يكون أهل البلد الآخر أشد حاجة ، أو يكونوا أنفع للمسلمين ، أو مجاهدين

في سبيل الله، أو حلّت بهم نكبة ، أو مجاعة ، أو لم يكن في بلده فقراء ونحو ذلك إذا رأى الإمام العادل(بمشورة أهل الشورى) في ذلك مصلحة للمسلمين وخيرًا للإسلام.

(4) مقصود الزكاة تطهير النفوس من الشح والبخل، وسد حاجة الفقراء والمساكين، وحفظ الدين وإشاعته في العالم كله، والله سبحانه حصر المستحقين دون أماكنهم، فقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:60]...

ليلة القدر

*فضل ليلة القدر :

امتازت ليلة القدر دون غيرها من ليالي شهر رمضان بالعديد من الفضائل؛ منها:

(1) فضّل الله تعالى هذه الليلة بأن أنزل فيها القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الأولى، قال تعالى:"شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ"[البقرة: 185].

فامتدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينها لإنزال القرآن العظيم، بل ورد أن صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل أنزلت أيضا في رمضان، فقد أخرج أحمد في مسنده بسند حسن، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أُنْزِلَتْ

صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ"..

▼ أنها ليلة مباركة، حيث يزيد الخير والبركات خاصة في هذه الليلة.

قال تعالى:"إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[الدخان: 3–6].

ومعنى:"فيها يفرق كل أمر حكيم": أي في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وغيرها.

(3) يرتفع فضلها، ويعلو شأنها، ويتضاعف الأجر فيها بما يزيد على الألف شهر، قال تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ).

أي أن العمل الصالح في ليلة القدر خير منَ العمل في غيرها ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

(4) تتنزّل الملائكة في هذه الليلة لتحفّ المسلمين :قال تعالى في القرآن الكريم: (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)..

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: " أَيْ: يَكْثُرُ تنزلُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا، وَالْمَلَائِكَةُ يَتَنَزَّلُونَ مَعَ تَنَزُّلِ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَمَا يَتَنَزَّلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَيُحِيطُونَ بِحِلَقِ الذِّكْرِ، وَيَضَعُونَ أَجْنِحَتَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصِدْقٍ تَعْظِيمًا لَهُ.

وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ. وَقِيلَ: هُمْ ضَرْبٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ"..

(5) تخلو هذه الليلة من الشرور، فيعمّ السلام والطمأنينة والرّاحة، وهي كما ورد في الآية الكريمة: (سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ)..

(6) أن فيها غفران للذنوب لمن قامها واحتسب في ذلك الأجر عند الله عز وجل.

أخرج الشيخان في صحيحيهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ".

▼ لماذا سميت ليلة القدر بهذا الاسم :

(1) قيل: لأنه نزل في هذه الليلة كتاب قدير، يحمله مَلَك قدير إلى رسول قدير، لأمّة ذات قدر عظيم. قال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ).

(2) وقيل : القدر يعني التعظيم، وهو بالاستناد إلى ما ورد في الآية الكريمة من القرآن الكريم: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

(3) وقيل: ليلة القدر تعني التقدير، ففيها يُكتب قدر كل الناس بغض النظر عن مكانتهم ومستواهم، من مطر، ورزق، وحياة، ومات، وغيرها، قال تعالى في كتابه العزيز: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)..

(4) وقيل: في ليلة القدر يكثر عمل المسلم، فيصير ذا قدر ومكانة عالية عند الله تعالى.

(5) قيل: إنما سُمِّيت ليلة القدر؛ لأنَّ الأرض تضيق بالملائكة؛ لكثرتهم فيها تلك الليلة؛ من "القَدْر"، وهو التَّضييق.

▼ وقت ليلة القدر :

هي إحدى ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، لما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ، مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ"..

وهي في الأوتار أقرب من الشِّفَاع، وتكون آكَدَ في السبع الأواخر؛ لما أخرجه مسلم في صحيحه، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ"..

وفي رواية للشيخين، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُرُوا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي المَنَامِ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ"..

وأخرج مسلم في صحيحه عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّهَا لَفِي رَمَضَانَ، يَحْلِفُ مَا يَسْتَثْنِي، وَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ، هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِيَامِهَا، هِيَ لَيْلَةُ صَبِيحَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَأَمَارَتُهَا أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِهَا بَيْضَاءَ لَا شُعَاعَ لَهَا"..

والراجح (كما بيَّنه ابنُ حجر في الفتح) أنَّ ليلة القدر تنتقل كلَّ سنة في ليلةٍ من الوِتر في العشر الأواخر؛ وذلك لما أخرجه البخاري في صحيحه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى".

ومعنى: "تاسعة تبقى": أي ليلة الحادي والعشرين.

▼ سبب إخفاء وقت ليلة القدر:

أخفى الله تعالى وقتها تحديدا لنجتهد في طلبها في الشر كله ، أو في العشر الأواخر ، أو على الأقل في ليالي الوتر من العشر الأواخر، فلو علم المسلمون وقتها تحديدا لضعفت عزائمهم طوال شهر رمضان، واقتصر جهدهم وقيامهم بإحياء هذه الليلة، وعليه، فإنّ إخفاء وقتها تحديداً يُعتبر حافزاً مُشجّعاً لقيام الليل والمداومة على العمل الصالح طوال الشهر كله، ومن ثمّ مضاعفة هذا العمل في الليالي العشر الأواخر، ومثله كثير ؛ مثل إخفاء ساعة الإجابة يوم الجمعة.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجتهد أكثر في العشر الأواخر ، ويعتكف في المسجد التماسا لليلة القدر.

▼ علامات ليلة القدر:

ومن العلامات التي تُعرف بها ليلة القدر؛ ما جاء في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "، وَأَمَارَتُهَا أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِهَا بَيْضَاءَ لَا شُعَاعَ لَهَا".

وقيل : والمقصود أنه لكثرة اختلاف الملائكة في ليلتها ونزولها إلى الأرض وصعودها بما تنزل به، سترت بأجنحتها وأجسامها اللطيفة ضوء الشمس وشعاعها".

وأما غير ذلك من العلامات، فلا يثبت فيها حديث، ككونها ليلة ساكنة، لا حارة ولا باردة، فما ورد من هذا القبيل ضعيف.

وما يقال إن الأشجار تسجد على الأرض ثم تعود إلى مكانها، وأن المياه المالحة تصبح في ليلة القدر حلوة، وأن الكلاب لا تنبح فيها، وأن الأنوار تكون في كل مكان، فهذه العلامات لا أصل لها.

▼ الدعاء في ليلة القدر:

يستحبُّ الدعاء فيها والإكثار منه؛ فقد أخرج الترمذي– وغيره– بسند صحيح، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟

قَالَ: " قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي".

ولكن يستحب الدعاء فيها بكل ما يريده المسلم ، ويستحب الإكثار من الدعاء العام الذي يرجع أثره على الأمة كلها.

قال النووي:

"ويُستحب أن يُكثر فيها من الدعوات بمهمات المسلمين، فهذا شعار الصالحين، وعباد الله العارفين"...

*فضل قيام رمضان

فضل قيام ليالي رمضان :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرغب في قيام رمضان ، من غير أن يأمرهم بعزيمة ، ثم يقول : " من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر على ذلك (أي على ترك الجماعة في التراويح) ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وصدرٍ من خلافة عمر رضي الله عنه .

وعن عمرو بن مرة الجهني قال : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من قضاعة فقال: يا رسول الله ! أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك محمد رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وصمت الشهر ، وقمت رمضان ، وآتيت الزكاة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء "

*ليلة القدر وتحديدها :

2- وأفضل لياليه ليلة القدر ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " من قام ليلة القدر ثم وُفّقت له ، إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه "

3- وهي ليلة سابع وعشرين من رمضان على الأرجح ، وعليه أكثر الأحاديث منها حديث زر بن حبيش قال : سمعت أبي ابن كعب يقول – وقيل له : إن عبد الله بن مسعود يقول : من قام السنة اصاب ليلة القدر ! – فقال أُبيّ رضي الله عنه : رحمه الله ، أراد أن لا يتكل الناس ، والذي لا إله إلا هو ، إنها لفي رمضان – يحلف ما يستثني – ووالله إني لأعلم أي ليلة هي ؟ هي الليلة التي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها ، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها . ورفع ذلك في رواية إلى النبي صلى الله عليه وسلم . أخرجه مسلم وغيره .

*مشروعية الجماعة في القيام :

4- وتشرع الجماعة في قيام رمضان ، بل هي أفضل من الانفراد ، لإقامة النبي صلى الله عليه وسلم لها بنفسه ، وبيانه لفضلها بقوله ، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : " صمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمضان ، فلم يقم بنا شيئاً من الشهر حتى بقي سبع فقام بنا حتى ذهب ثلث الليل ، فلما كانت السادسة لم يقم بنا ، فلما كانت الخامسة قام بنا حتى ذهب شطر الليل ، فقلت : يا رسول الله ! لو نفّلتنا قيام هذه الليلة ، فقال : " إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حسب له قيام ليلة " فلما كانت الرابعة لم يقم ، فلما كانت الثالثة جمع أهله ونساءه

والناس ، فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح ، قال : قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور ، ثم لم يقم بنا بقية الشهر) حديث صحيح ، أخرجه أصحاب السنن .

*السبب في عدم استمرار النبي صلى الله عليه وسلم بالجماعة فيه :

5- وإنما لم يقم بهم عليه الصلاة والسلام بقية الشهر خشية أن تُفرض عليهم صلاة الليل في رمضان ، فيعجزوا عنها كما جاء في حديث عائشة في الصحيحين وغيرهما ، وقد زالت هذه الخشية بوفاته صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل الله الشريعة ، وبذلك زال المعلول ، وهو ترك الجماعة في قيام رمضان ، وبقي الحكم السابق وهو مشروعية الجماعة ، ولذلك أحياها عمر رضي الله عنه كما في صحيح البخاري وغيره .

*مشروعية الجماعة للنساء :

6- ويشرع للنساء حضورها كما في حديث أبي ذر السابق بل يجوز أن يُجعل لهن إمام خاص بهن ، غير إمام الرجال ، فقد ثبت أن عمر رضي الله عنه لما جمع الناس على القيام ، جعل على الرجال أبيّ بن كعب ، وعلى النساء سليمان بن أبي حثمة ، فعن عرفجة الثقفي قال : (كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يأمر الناس بقيام شهر رمضان ويجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً ، قال : فكنت أنا إمام النساء "

قلت : وهذا محله عندي إذا كان المسجد واسعاً ، لئلا يشوش أحدهما على الآخر .

عدد ركعات القيام :

7- وركعاها إحدى عشرة ركعة ، ونختار أن لا يزيد عليها اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يزد عليها حتى فارق الدنيا ، فقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن صلاته في رمضان ؟ فقالت : " ما كان رسول الله يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً " أخرجه الشيخان وغيرهما

8- وله أن ينقص منها ، حتى لو اقتصر على ركعة الوتر فقط ، بدليل فعله صلى الله عليه وسلم وقوله .

أما الفعل ، فقد سئلت عائشة رضي الله عنها : بكم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر ؟ قالت : "كان يوتر بأربع وثلاث ، وست وثلاث ، وعشر وثلاث ، ولم يكن يوتر بأنقص من سبع ، ولا بأكثر من ثلاث عشرة " رواه ابو داود وأحمد وغيرهما .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم فهو : " الوتر حق ، فمن شاء فليوتر بخمس ، ومن شاء فليوتر بثلاث ، ومن شاء فليوتر بواحدة " .

✓ القراءة في القيام :

9- وأما القراءة في صلاة الليل في قيام رمضان أو غيره ، فلم يحُد فيها النبي صلى الله عليه وسلم حداً لا يتعداه بزيادة أو نقص ، بل كانت قراءته فيها تختلف قصراً وطولاً ، فكان تارة يقرأ في كل ركعة قدر (يا أيها المزمل) وهي عشرون آية ، وتارة قدر خمسين آية ، وكان يقول : " من صلى في

ليلة بمائة آية لم يكتب من الغافلين " ، وفي حديث آخر : " .. بمائتي آية فإنه يُكتب من القانتين المخلصين " .

وقرأ صلى الله عليه وسلم في ليلة وهو مريض السبع الطوال ، وهي سورة (البقرة) و (آل عمران) و (النساء) و (المائدة) و (الأنعام) و (الأعراف) و (التوبة) .

وفي قصة صلاة حذيفة بن اليمان وراء النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعة واحدة (البقرة) ثم (النساء) ثم (آل عمران) ، وكان يقرؤها مترسلا متمهلاً

وثبت بأصح إسناد أن عمر رضي الله عنه لما أمر أبيّ بن كعب أن يصلي للناس بإحدى عشرة ركعة في رمضان ، كان أبيّ رضي الله عنه يقرأ بالمئين ، حتى كان الذين خلفه يعتمدون على العصي من طول القيام ، وما كانوا ينصرفون إلا في أوائل الفجر .

وصح عن عمر أيضاً أنه دعا القراء في رمضان ، فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ ثلاثين آية ، والوسط خمساً وعشرين آية ، والبطيء عشرين آية .

وعلى ذلك فإن صلى القائم لنفسه فليطوّل ما شاء ، وكذلك إذا كان معه من يوافقه ، وكلما أطال فهو أفضل ، إلا أنه لا يبالغ في الإطالة حتى يحيي الليل كله إلا نادراً ، اتباعاً للنبي صلى الله عليه وسلم القائل : " وخير الهدي هدي محمد " ، وأما إذا صلى إماماً ، فعليه أن يطيل بما لا يشق على من وراءه لقوله صلى الله عليه وسلم : (إذا قام أحدكم للناس فليخفف الصلاة ، فإن فيهم الصغير والكبير وفيهم الضعيف ، والمريض ، وذا الحاجة ، وإذا قام وحده فليُطل صلاته ما شاء .

✔وقت القيام :

10– ووقت صلاة الليل من بعد صلاة العشاء إلى الفجر ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله زادكم صلاة ، وهي الوتر ، فصلوها بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر "

11– والصلاة في آخر الليل أفضل لمن تيسر له ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : " من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة آخر الليل مشهودة ، وذلك أفضل "

12– وإذا دار الأمر بين الصلاة أول الليل مع الجماعة ، وبين الصلاة آخر الليل منفرداً ، فالصلاة مع الجماعة أفضل ، لأنه يحسب له قيام ليلة تامة .

وعلى ذلك جرى عمل الصحابة في عهد عمر رضي الله عنه ، فقال عبد الرحمن بن عبيد القاري : " خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة في رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون ، يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرّهط ، فقال : والله إني لأرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ، ثم عزم ، فجمعهم على أبيّ بن كعب ، قال : ثم خرجت معه ليلة أخرى ، والناس يصلون بصلاة قارئهم ، فقال : عمر ، نعمت البدعة هذه ، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون – يريد آخر الليل – وكان الناس يقومون أوله "

وقال زيد بن وهب : (كان عبد الله يصلي بنا في شهر رمضان فينصرف بليل)

13- لما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن الإيتار بثلاث ، وعلل ذلك بقوله : " ولا تشبهوا بصلاة المغرب " فحينئذ لا بد لمن صلى الوتر ثلاثاً من الخروج من هذه المشابهة ، وذلك يكون بوجهين :

أحدهما : التسليم بين الشفع والوتر ، وهو الأقوى والأفضل .

والآخر : أن لا يقعد بين الشفع والوتر ، والله تعالى أعلم .

✔ القراءة في ثلاث الوتر :

14- ومن السنة أن يقرأ في الركعة الأولى من ثلاث الوتر : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وفي الثانية : (قل يا أيها الكافرون) ، وفي الثالثة : (قل هو الله أحد) ويضيف إليها أحياناً : (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قرأ مرة في ركعة الوتر بمائة آية من سورة (النساء)

✔ دعاء القنوت :

15- و.. يقنت .. بالدعاء الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما وهو : (اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز

من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، لا منجا منك إلا إليك) ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً ، لما يأتي بعده . (ولا بأس أن يزيد عليه من الدعاء المشروع والطيّب الصحيح) .

16- ولا بأس من جعل القنوت بعد الركوع ، ومن الزيادة عليه بلعن الكفرة ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء للمسلمين في النصف الثاني من رمضان ، لثبوت ذلك عن الأئمة في عهد عمر رضي الله عنه ، فقد جاء في آخر حديث عبد الرحمن بن عبيد القاري المتقدم : " وكانوا يلعنون الكفرة في النصف : اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ، ولا يؤمنون بوعدك ، وخالف بين كلمتهم ، وألق في قلوبهم الرعب ، وألق عليهم رجزك وعذابك ، إله الحق) ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدعو للمسلمين بما استطاع من خير ، ثم يستغفر للمؤمنين .

قال : وكان يقول إذا فرغ من لعنة الكفرة وصلاته على النبي واستغفاره للمؤمنين والمؤمنات ومسألته : (اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، ونرجو رحمتك ربنا ، ونخاف عذابك الجد ، إن عذابك لمن عاديت ملحق " ثم يكبر ويهوي ساجداً .

✔ما يقول في آخر الوتر :

17- ومن السنة أن يقول في آخر وتره (قبل السلام أو بعده) :

" اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك "

18- وإذا سلم من الوتر ، قال : سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس (ثلاثاً) ويمد بها صوته ، ويرفع في الثالثة .

✔ ✔ الركعتان بعده :

19- وله أن يصلي ركعتين (بعد الوتر إن شاء) ، لثبوتهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلاً بل .. قال : " إن هذا السفر جهد وثقل ، فإذا أوتر أحدكم ، فليركع ركعتين ، فإن استيقظ وإلا كانتا له " .

20- والسنة أن يقرأ فيهما : (إذا زلزلت الأرض) و (قل يا أيها الكافرون) .

***آداب العيد**

هناك سنن ومستحبات وآداب ينبغي أن يراعيها المسلم في العيد، منها:

الاغتسال قبل الخروج إلى صلاة العيد:

لم يصح في الأمر بالغسل في العيد حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من فعله صلى الله عليه وسلم، لكن صحت آثار عن بعض الصحابة، منها:

(أ) ما رواه الشافعي، قال: أخبرنا ابن علية، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن زاذان، قال: سأل رجل علياً رضي الله عنه عن الغسل؟ فقال: اغتسل كل يوم إن شئت، فقال: الغسل الذي هو الغسل؟

قال: يوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم الفطر".

(ب) ما رواه مالك في الموطأ، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يغتسل يوم الفطر قبل أن يغدو إلى المصلى".

فالاستدلال على مشروعية الاغتسال في يوم العيد بفعل ابن عمر، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ لأن فعل الصحابي حجة فيما لم يُخَالَف فيه، ولم يُخَالِف نصاً صريحاً مرفوعاً.

والمعنى الذي يستحب بسببه الاغتسال للجمعة وغيرها من الاجتماعات العامة موجود في العيد بل لعله في العيد أبرز، فيقاس غسل العيد على غسل الجمعة، بجامع أن كلاً منهما عيد للمسلمين، ويجتمع فيه الناس، فيستحب فيه أن يكون المسلم في كامل زينته، ومنها الاغتسال والطيب وغيرهما.

التجمل للعيد:

بأن يلبس المسلم أحسن ما عنده من الثياب وأجمله، فقد أخرج البخاري في صحيحه، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَخَذَ عُمَرُ جُبَّةً مِنْ إِسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ فِي السُّوقِ، فَأَخَذَهَا، فَأَتَى بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْتَعْ هَذِهِ تَجَمَّلْ بِهَا لِلْعِيدِ وَالوُفُودِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ".

فَلَبِثَ عُمَرُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجُبَّةِ دِيبَاجٍ، فَأَقْبَلَ بِهَا عُمَرُ، فَأَتَى بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّكَ قُلْتَ: "إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ"، وَأَرْسَلْتَ إِلَيَّ بِهَذِهِ الجُبَّةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَبِيعُهَا أَوْ تُصِيبُ بِهَا حَاجَتَكَ".

فأقر النبي صلى الله عليه وسلم عمر على التجمل للعيد لكنه أنكر عليه شراء هذ الجبة لأنها من حرير.

قال ابن بطال المالكي: "التجمل في العيدين بحسن الثياب سنة مندوب إليها كل من يقدر عليها.

قال المهلب: وكذلك التجمل في الجماعات والوفود بحسن الثياب مما جرى به العمل، وترك عليه السلام، لباس الجبة زهدًا في الدنيا، وأراد أن يؤخر طيبات الدنيا للآخرة التي لا انقضاء لها، ورأى أن تعجيل طيباته في الدنيا المنقطعة وبيع الدائم بها ليس من الحزم، فزهد في الدنيا للآخرة وأمر بذلك، ونهى عن كل سرف وحرَّمه".

ألا يخرج في عيد الفطر حتى يأكل تمرات:

أخرج البخاري في صحيحه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: :كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ يَغْدُو يَوْمَ الفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ".

وإنما استحب أكل التمرات في عيد الفطر؛ مبالغةً في النهي عن الصوم في ذلك اليوم، لأن الإنسان يفطر قبل أن يذهب إلى العيد.

قال الحافظ ابن حجر: "قال المهلب: "الحكمة في الأكل قبل الصلاة أن لا يظن ظان لزوم الصوم حتى يصلي العيد فكأنه أراد سد هذه الذريعة.

وقال غيره: لما وقع وجوب الفطر عقب وجوب الصوم استحب تعجيل الفطر مبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى" .

بخلاف الأضحى، فإنه يستحب ألا يأكل إلا بعد العيد، من أضحيته.

التكبير:

كما قال الله عز وجل: "وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [البقرة:185] فأشار إلى مشروعية التكبير في العيد.

فينبغي إظهاره والجهر به، إظهارا لشعائر الله تعالى.

وروى الفريابي بسند صحيح، عن الوليد بن مسلم قال: سألت الأرزاعي ومالك بن أنس عن إظهار التكبير في العيدين. قالا: نعم، كان عبد الله بن عمر يظهره في يوم الفطر حتى يخرج الإمام. وقد تكلمنا عن التكبير تفصيلا في الدرس السابق.

التهنئة التي يتبادلها الناس فيما بينهم:

أياً كان لفظها، مثل: تقبل الله منا ومنكم، أو :كل عام أنتم بخير، أو أعاده الله علينا وعليكم بالخير والمسرات والبركات، ونحو ذلك فلا بأس، أي عبارة طيبة يقولها لا بأس بذلك.

وروي المحاملي بسند حسن, عن جبير بن نفير قال: "كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: تقبل الله منا ومنك".

والتهنئة في المسرات عموما كان أمرا معروفاً عند الصحابة، ورخص فيه أهل العلم كالإمام أحمد وغيره، وقد ورد ما يدل على مشروعيه التهنئة في المناسبات، وتهنئة الصحابة بعضهم بعضاً فيما إذا حصل لهم أمر يسر، كما هنأوا الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك عندما تاب الله عليهم، إلى غير ذلك.

إظهار البشاشة والسرور أمام الأهل والأقارب والأصدقاء ، والإكثار من الصدقات.

الذهاب إلى الصلاة من طريق والعودة من آخر:

أخرج البخاري في صحيحه، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ".

قيل: الحكمة من ذلك ليشهد له الطريقان عند الله يوم القيامة، والأرض تحدّث يوم القيامة بما عُمل عليها من الخير والشرّ. وقيل لإظهار شعائر الإسلام في الطريقين.

وقيل لإظهار ذكر الله. وقيل لإغاظة المنافقين واليهود وليرهبهم بكثرة من معه.

صلة الرحم، والتزاور والتواصل مع الأهل والجيران والأصدقاء، وإدخال البهجة والفرحة والسعادة على أولادهم وفقرائهم، وإدخال الفرحة والسعادة على اليتامى وتعويضهم بعض الشيء عن آبائهم.

تكره زيارة المقابر يومي العيدين (الفطر والأضحى) لأن في ذلك تجديدا للأحزان، وهما يوما فرحة وتوسعة.

الحذر من الوقوع في المخالفات الشرعية، والتحلل بحجة أنه يوم عيد، فالذنوب يزداد قبحها ويعظم وزرها بفعلها في الزمن المشرف والمكان المشرف، والعيدان من الأزمان المشرفة، فهما يأتيان عقب فريضتين شرعيتين، فعيد الفطر يأتي عقب الانتهاء من فريضة الصيام، وعيد الأضحى يأتي عقب الانتهاء من فريضة الحج..

*** أحكام صلاة العيد**

حكم صلاة العيد:

سنة مؤكدة عند الشافعية والمالكية، وفرض كفاية عند الحنابلة، وواجبة عند الحنفية.

وقت صلاة العيد:

بعد ارتفاع الشمس بقدر رمح، وحدده العلماء بزوال حمرتها، وينتهي وقتها بزوال الشمس.

هل يؤذن لصلاة العيد؟

لا يؤذَّن لها ولا يقام، لما رواه أحمد في مسنده، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: "شهدت العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بلا أذان ولا إقامة"، قال: ثم شهدت العيد مع أبي بكر فصلى بلا أذان ولا إقامة ، قال: ثم شهدت العيد مع عمر فصلى بلا أذان ولا إقامة، ثم شهدت العيد مع عثمان فصلى بلا أذان ولا إقامة".

واستحب بعض العلماء أن ينادى لها: "الصلاة جامعة"، قياساً على صلاة الكسوف.

***كيفية صلاة العيد:**

صلاة العيد ركعتان؛ لما أخرجه ابن خزيمة وغيره بسند صحيح، عن عمر رضي الله عنه، قال: "صلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم، وقد خاب من افترى".

يكبر في الركعة الأولى سبع تكبيرات بعد تكبيرة الإحرام ، وفي الركعة الثانية خمس تكبيرات بعد تكبيرة القيام.

ويستحب أن يقرأ في الركعة الأولى – بعد الفاتحة – سورة الأعلى ، وفي الثانية – بعد الفاتحة – سورة الغاشية ، أو في الأولى سورة ق ، وفي الثانية " اقتربت الساعة "

ولم يثبت شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء ولا ذكر معين بين كل تكبيرتين.

لكن يوجد بعض الآثار الموقوفة عن عبد الله بن مسعود، وغيره، منها:

(أ) قال عقبة بن عامر: " سألت ابن مسعود عما يقوله بعد تكبيرات العيد قال: يحمد الله , ويثني عليه ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم.

(ب) أخرج الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح، أن الوليد بن عقبة، دخل المسجد وابن مسعود، وحذيفة، وأبو موسى في عرصة المسجد، فقال الوليد: إن العيد قد حضر فكيف أصنع؟ فقال ابن مسعود: "تقول الله أكبر، وتحمد الله، وتثني عليه، وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وتدعو الله، ثم تكبر، وتحمد الله، وتثني عليه، وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم تكبر، وتحمد الله، وتثني عليه، وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وتدعو الله، ثم تكبر، وتحمد الله، وتثني عليه وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وتدعو، ثم كبر واقرأ بفاتحة الكتاب، وسورة، ثم كبر واركع واسجد، ثم قم فاقرأ بفاتحة الكتاب، وسورة، ثم كبر، واحمد الله، وأثن عليه، وصل على

النبي صلى الله عليه وسلم وادع ثم كبر، واحمد الله، وأثن عليه، وصلي على النبي صلى الله عليه وسلم واركع واسجد".

قال: فقال حذيفة، وأبو موسى: أصاب.

فإذا فرغ المأموم من التكبيرة ووجد فرصة فقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أو ما هو قريب من هذا فلا بأس.

رفع الأيدي في التكبير:

جمهور العلماء على رفع الأيدي مع كل التكبيرات، خلافا للمالكية ومن وافقهم، فإنهم يرون الرفع في تكبيرة الإحرام فقط.

والرأي المختار أن المأموم يرفع صوته بالتكبير خلف الإمام، بخلاف ما يكون في صلاة الجنازة.

المسبوق في صلاة العيد:

من فاتته الركعة الأولى يأتي بها بتكبيراتها بعد تسليم الإمام.

أما من دخل في الصلاة بعد انتهاء الإمام من التكبير فيكبر تكبيرة الإحرام فقط، ويستمع للقراءة، فإذا فرغ الإمام من الفاتحة يقرأ المأموم الفاتحة فقط ويستمع لقراءة الإمام.

وليس لصلاة العيد سنة قبلها ولا بعدها.

من فاتته صلاة العيد مع الجماعة:

من فاتته مع الإمام فيجوز له أن يؤديها وحده على نفس الصفة ،(فيصلي ركعتين بنفس الكيفية) ،ولكن بغير خطبة بعدها.

الخطبة للعيد:

وبعد الصلاة يخطب الإمام خطبة يذكر فيها الناس ويعظهم.

أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف، فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم فيعظهم، ويوصيهم، ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثا قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف".

حضور النساء:

يشرع خروج الصبيان والنساء في العيدين للمصلى من غير فرق بين البكر والثيب والشابة والعجوز والحائض، والنفساء، يشهدن الخير ودعوة المسلمين، والحيض والنفساء يعتزلن المصلى ،

فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن أم عطية رضي الله عنها، قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن نخرجهن في الفطر والأضحى، العواتق، والحيض، وذوات الخدور، فأما الحيض فيعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير، ودعوة المسلمين، قلت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: «لتلبسها أختها من جلبابها".

وأخرج البخاري في صحيحه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم فطر أو أضحى فصلى، ثم خطب، ثم أتى النساء، فوعظهن، وذكرهن، وأمرهن بالصدقة".

ويشترط لخروجهن أمن الفتنة، بأن يخرجن غير مستعطرات ولا متبرجات، ولا يختلطن بالرجال والشباب.

وما شهدناه في السنوات الأخيرة من اختلاط بين الرجال والنساء في صلاة العيدين من أشد المنكرات، وهو أمر مقصود بغرض هز الثوابت عند المسلمين، والتهوين من شعائر الله، وإزالة تعظيم الدين وشعائره من نفوس المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وختاماً :

هَذَا رَمَضَانُ قَد حَضَرَكُم، فَأَعِدُّوا العُدَّةَ وَأَصلِحُوا النِّيَّةَ، وَاعزِمُوا عَلَى الطَّاعَةِ وَاسلُكُوا طَرِيقَ الصَّالِحَاتِ وَالحَسَنَاتِ يَزِدْكُم رَبُّكُم مِنهَا وَيُبَارِكْ لَكُم فِيهَا، فَإِنَّ الرَّبَّ – تَعَالى – غَفُورٌ شَكُورٌ، لا يُضِيعُ أَجرَ مَن أَحسَنَ عَمَلاً، وَلا يَرُدُّ مَن أَقبَلَ عَلَيهِ مُؤَمِّلاً، قَالَ – تَعَالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: 29، 30] .

وَقَالَ – جَلَّ وَعَلا –:

﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: 17]

وَقَالَ – جَلَّ وَعَلا –:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 7، 8].

إِنَّ النُّفُوسَ عَلَى مَا عَوَّدَهَا أَصحَابُهَا، وَلَيسَ شَيءٌ أَضَرَّ بِهَا مِنَ الكَسَلِ أَوِ الاستِعجَالِ وَالمَلَلِ، قَالَ – عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ –: " الخَيرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ " رَوَاهُ ابنُ مَاجَهْ وَحَسَّنَهُ الأَلبَانِيُّ.

وَقَالَ – تَعَالى – فِي ذَمِّ الكُسَالى:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: 46] .

وَقَالَ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ –: " يُستَجَابُ لأَحَدِكُم مَا لم يَعجَلْ يَقُولُ دَعَوتُ فَلَم يُستَجَبْ لي " رَوَاهُ الشَّيخَانِ.

وَقَالَ – عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ –:

" خُذُوا مِنَ الأَعمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا " رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ.

فَلْنُعَوِّدِ النُّفُوسَ الإقبَالَ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالاستِكثَارَ مِنَ الحَسَنَاتِ، وَخَاصَّةً في مَوَاسِمِ الخَيرَاتِ؛ فَإِنَّ للهِ في تِلكَ المَوَاسِمِ نَفحَاتٍ، فَعَسَى أَن تُصِيبَنَا وَاحِدَةٌ مِنهَا فَنَسعَدَ بِهَا سَعَادَةً نَأمَنُ بَعدَهَا مِنَ النَّارِ وَمَا فِيهَا مِنَ اللَّفَحَاتِ

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ **[آل عمران: 200]**.


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
استصحاب التوبة فى رمضان
أ. د. محمد أحمد عزب

استصحاب التوبة في رمضان

التوبة هي المقام العظيم الذي ينبغي ألا يفارق المرء في حله وترحاله، في غفوته ويقظته، من منا لم يقارف ذنبا، بل ذنوبا لا حصر لها، من منا لم يجاوز حدود ما حرم الله، أو فرّط في بعض ما أمر الله؟ من هنا كان استصحاب التوبة من سمات النبلاء الراغبين وصلا إلى طريق الله تعالى .

إن التوبة هي إحدى كوابح الانفلات، وإحدى العقبات في طريق الشر، وهي عقبة خير، ومانع خير، فالتوبة ليست بابا لولوج المعاصي والاتكاء عليها، وليست سبيلا يجعل الحرام ميسورا، والإقدام عليه بلا خوف .

في الحديث أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل طويل شطب، فقال: أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل له من توبة؟ قال: «فهل أسلمت؟» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك رسول الله، قال: «نعم , تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن» , قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «نعم» قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى»[حديث حسن، أخرجه الطبراني]

إن دخول المرء في الإسلام هو أعظم صور التوبة وأعلاها، فهو تحوُّل تام من المعصية الأكبر التي هي الكفر بالله تعالى، إلى النور الأكمل وهو الإسلام والتوحيد، ومهما كان الكافر موصوفا في نفسه وفي فعاله بإنسانية مرهفة، فالكفر أكبر خطيئة تكسو جبينه، وتسود وجهه وقلبه ونفسه، وإنسانيته إن اكتسب بها ذكرا جميلا ، فلو مات على كفره فلن يكتسب بها رحمة ولا نعيما مقيمًا.

جاء الرجل وكان قبل رجل سوء لم يترك من الشر بابا إلا ولج فيه، ولم يترك معصية إلا فعلها، فصفته التي حلاه بها الراوي أنه (طويل شطب)، والغالب أن ذاك اسمه لا صفته، لكن الرجل على كل حال من حواره يظهر أنه استغل جاهليته في كل ما يستطيع فعله من الشر، ويدل عليه قوله: (لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها) أي: ما تركت شيئا دعتني نفسي إليه من المعاصي إلا وقد ركبته [النهاية في غريب الحديث 1/ 457]، وهنا جاء قوله صلى الله عليه وسلم: «فهل أسلمت؟» فالإسلام هو أول باب الخير، ولعل في اختيار لفظ الإسلام دون الإيمان مغزى، فالإيمان هو التصديق، والإسلام هو الاستسلام، فاختار المعصوم صلى الله عليه وسلم ما كان دالا على الاستسلام ليكون مقدمة للتوجيه للرجل: «تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن» إذا

فمقتضى الاستسلام هو الكف عن المعاصي، والبعد عنها ثم الاجتهاد في فعل الخير، وفي الحديث: (عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية) [حسن، أخرجه الطبراني]، وهكذا فالتوبة في أجلى صورها كف عن السوء واستصحاب لفعل الخير، والذين يظنون باب التوبة باب رصيد باق يتكئون عليه في فعل المعاصي –واهمون، فإنهم حين الذنب لا يضمنون البقاء لفعل التوبة، وإذا فعلوها فلا يضمنون أنها تقبل منهم.

إن استصحاب التوبة للصائم فرصة آكد، ونفسه معينة له، فإنها في حال الصيام في حال رقي وحال صفاء، فكلما تذكر ذنبا لجأ إلى الله تعالى فيه، وفي الكتاب العزيز: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [النساء: 17]، فالتوبة حين الذنب مرغب فيها، والتوبة حالا فضيلة عظيمة

ومن أعظم أنواع التوبة؛ التوبة على التفريط في المأمورات والطاعات الشرعية، قال ابن تيمية: (كثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المعاصي المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررا عليه مما فعله من بعض الفواحش؛ فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقا أعظم نفعا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية. والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك؛ فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال، لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائما)[مجموع الفتاوى (10/ 329]

فالتوبة في رمضان هي توبة عن كل ما سلف، معصية فُعلت، أو طاعة تُركت أو قصر صاحبها فيها.

إن من أوسع أبوب الخير باب التوبة ففي الحديث: عن صفوان بن عسال رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن من قبل المغرب لبابا مسيرة عرضه أربعون عاما أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه[الترمذي وقال حسن صحيح]

إن حسبة رياضية يعلم بها المرء عرض هذا الباب، فالماشي مشيا معتادا يقطع في اليوم الواحد 28 كيلو، لأن مسافة القصر مسير ثلاثة أيام، وهي في الغالب من قول العلماء (84) كيلو، فالمسافة على تقدير الأربعين عاما تساوي (408800) كيلو، فسعة الباب بالمتر هي (408800000) فكأن البشرية كلها لو قررت في لحظة واحدة دخول باب التوبة فإن الباب يسعها، مع ضميمة أن بعض الألفاظ الشرعية تساق ليتسع الفهم لدلالتها؛ لا أن التحديد فيها يكون مقصودا، كقوله

تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: 80]، فالعدد ليس مقصودا، بل المقصود أنه مهما بالغ في الاستغفار لهم فلن يغفر الله لهم، وإلا فلو كان العدد مقصودا، فإنه صلى الله عليه وسلم لو استغفر لهم أكثر من سبعين لغفر الله لهم، وهو غير مراد.

وأخيرا أخي الصائم إن الله تعالى يقبلك في أي وقت دخلت فيه عليه ففي الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[أخرجه مسلم]

فهل الوقت إلا ليل أو نهار؟!، فالله يبسط يده على الوجه الذي يليق به في كل ما هو من شأن الإنسان أن يكون فيه ليلا أو نهارا، وفي الحديث معنى أخر، فإنه عبر ببسط اليد على الوجه اللائق بجلال الله وقيوميته على خلقه، ولم يقل إن الله يقبل مسيء الليل إن تاب، بل قال: (يبسط يده)، ففيه من معنى الدلال والتكريم ما فيه، كما فيه من معنى الرحمة ما فيه، لأن المرء حين يُطمئن خائفا يبسط له يده، ولله المثل الأعلى جل الله تعالى عن الشبيه والنظير .

فالعاقل من استصحب التوبة سيما في هذه اللحظات الفارقة في عامه، وحياته ، ونجا من ذنب جعله يائسا من رحمة الله، فأظلمت عليه الحياة حتى بدا أمام نفسه أنه لا عاصيا غيره ، وعاش دهره كذلك ، فلا حصل توبة ، ولا تمم طاعة ولحق بالدار الآخرة يائسا ، وهي منقلب سوء نسأل الله العافية منها.


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
حقيقة صوم رمضان بين
المفكرين والفلاسفة
أ. د. عماد عبد الرازق

حقيقة صوم رمضان بين المفكرين و الفلاسفة

مقدمة:

مما لاشك فيه أن الصوم يمثل عبادة من أسمى العبادات و أجلها،فهو مدرسة روحية لتهذيب النفس و الحث على الفضائل السامية،وغرس القيم النبيلة.كما أنه شعيرة قديمة وجدت في كل الأديان سواء كانت أديان وضعية أو سماوية.فهو ليس مجرد الجوع و العطش و الحرمان من الملذات ،وليس أيضا فلسفة للوصول إلى خرق العادة كما هو موجود عند بعض أصحاب الديانات الوضعية،كما أنه لا يمت إلى نظرية اللذة في الألم بأي صلة.نعم هو امتناع عن الأكل و الشرب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، لكنه له مقاصده العظيمة،وأسراره الكبيرة،والتي تعمل على بناء الفرد و المجتمع بل و الأمة بأسرها،على قيم الرشد و التعاليم السامية و الفضائل النبيلة،كل هذا يتم بعيدا عن مظاهر الإسراف و التبذير،وفي توازن عجيب بين مطالب الجسد و الروح. فالصوم يزكي النفس و يطهر الروح،ويشحذ الهمم و الإرادة. و في هذا السياق نشير إلى أن حلول شهر رمضان كان من المناسبات الخاصة التي تحظى باهتمام فائق من الكتاب و المفكرين و المؤلفين، الكل يتبارى في ما سوف يكتب عن صوم رمضان،وبما سيقدمه عن فيوضات الصوم و تجلياته في هذا الشهر الجليل،الذي يمثل منزلة عظيمة لدى المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها. ولعل من أشهر هولاء المفكرين الذين سنلقي عليهم الضوء في مقالتنا هذه الكاتب مصطفي صادق الرافعي–و الكاتب و المفكر الكبير محمود عباس العقاد–و المفكر الإسلامي الكبير على عزت بيجوفيتش. ثم نعرج لبيان أسرار و حكمة صوم رمضان عند بعض الفلاسفة المسلمين و لعل أشهرهم الإمام أبو حامد الغزالي–و الفيلسوف أبن سينا.

<u>الصوم ثورة روحية عند الرافعي</u> :كان حديث الرافعي عن صوم رمضان في أشهر كتبه (وحي القلم) ولقد أطلق تعبير يحمل دلالات كثيرة،ومعاني غزيرة أنه تعبير الثورة،بما تحمله من تغيير في السلوك و الأخلاق، فالصوم من وجهة نظر الرافعي ثورة روحية لما يتضمنه من تهذيب للنفس،وجعل الناس

سواسية و متساوون،يصبغهم بشعور واحد،ومشاعر واحدة،يصمون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد،وهذا له دلالة واحدة وهي المساواة والشعور بحالة نفسية واحدة،تتلبس بها النفس في مشارق الأرض و مغاربها،ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح،يعلم الرحمة و يدعوا إليها،فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة وهي تلك التي بها يحدث مساواة الغني بالفقير. ومن هنا الصوم يحدث الهدوء النفسي ،ويهيأ الأرواح لتتخلص من علوقها الأرضي متجهة إلى عالم أقرب و أطهر وأسمى ،متخذه لطاقتها معراجا تعرج به نحو السماء([1]) ليس هذا فحسب بل يصف الرافعي الصوم بتعبير بليغ و بياني رائع ياخذ بالألباب، و يعطي القلب شحنة إيمانية تسري في الوجدان .

هذا التعبير هو أن الصوم فقر إجباري: وفي هذا السياق فالصوم فقر إجباري لأن الرافعي يرى أن هذا الحرمان من الطعام و الشراب ومن شهوات الجسد ليس المقصود منه تعذيب النفس الإنسانية أو قهرها إنما شرع لغاية اجتماعية أعظم،فهو يجعل المرء يجوع و يترك شهوته لكي يحقق المساواة و الوحدة بين أفراد الأمة. إن الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضا ليتساوى الجميع في بواطنه سواء منهم من ملك المليون من الدنانير و من لم يملك شيئا. ليس هذا فحسب بل هو فقر إجباري يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح ،ان الحياة الصحيحة هي التي يتساوى فيها الناس في الشعور. وتتعدد فوائد الصوم ولعل من ابرز هذه الفوائد هو وجود الم في عملية الصوم ،والذي يراه الرافعي له سر عظيم،هذا الألم النفسي و الجسمي الناتج عن الامتناع عن الطعام و الشراب إنما هو منشأ الرحمة . ولذا فأن من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم و هذا بعض السر الاجتماعي العظيم للصوم. ([2]) ويعرج الرافعي بعد ذلك للحديث عن شهر رمضان المعظم الذي له مكانة كبيرة في قلوب المسلمين،لا ينازعه في هذه المكانة أي شهر آخر،ولما لا وهو الشهر الوحيد الذي ذكر في القرآن،ونزل فيه القرآن،وبه ليلة هي أعظم ليلة من ليالي الدنيا و خير من ألف شهر ،وهي ليلة القدر. ويصف الشهر بقوله أن أيامه قلبية في الزمن ،كما أن أيامه هي بمثابة ثلاثون حبة تؤخذ كل سنة لتقوية المعدة و تصفية الدم و حياطة أنسجة الجسم. ولعل من ابلغ العبارات و الوصف الجميل عند الرافعي هو الحديث عن رؤية الهلال و ما له من فرحة غامرة

---

[1] –مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم،دار ابن حزم،2017،ص449.

[2] –مصطفى الرافعي: من وحي القلم،ص454.

تسيطر على النفوس ، وتشيع في القلوب الفرحة ،وكيف أن رؤية الهلال هي تثبيت للعزيمة و إعلاء من شأنها، و استعداد لبداية الكفاح من أجل صوم هذا الشهر الفضيل.

وفي نهاية الحديث عن الصوم عند الرافعي نرى أنه يقوي العزيمة، ويهذب النفس و يقوي الروح، ويعلم الصبر.

الصوم و تجلياته عند العقاد : لعلنا نشير هنا أن العقاد كتب عن صوم رمضان و هذا الشهر في عدد رمضان من مجلة الهلال عام **1955**. وكتب عدة مقالات عن صوم رمضان في كتابه(الإسلام دعوة عالمية) يشير في هذا الكتاب إلى أن حكمة الصيام في الأديان الكتابية كانت محصورة في أغراض معدودة،وهي تعذيب النفس و التكفير عن الخطايا و السيئات ،وتربية الأخلاق على نحو من الأنحاء. أما الدين الإسلامي فهو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام. ولا خلاف بين الأئمة أن الحكمة المقصودة بهذه الفريضة هي تقويم الأخلاق و تربيتها. ومن هنا فان الخلق الذي يعم الأغنياء و الفقراء ويستفاد من فريضة الصوم هو الإرادة، فالارادة لازمة في كل تكليف و في كل تبعة و في كل فضيلة ،فلا قوام للفرائض و الفضائل جميعا بغير هذه الارادة.وهي لازمة للفقير لزومها للغني([3]). ومن هنا يصف العقاد شهر رمضان بالفريضة الاجتماعية ،وأن أدبه أدب الإرادة،وحكمته حكمة الإرادة،والخلق في الدين،وان الخلق يجب ان يكون له تبعات و تكاليف،وان من ملك الإرادة فأن زمام الخلق بين يديه. و أن رمزية شهر رمضان أنه فريضة اجتماعية على آحاد المكلفين،وهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة ،وعلى نمط واحد من تغيير العادات ،وليس أصلح لتربية الأمة من تعويدها على هذا النظام و تغيير العادات شهر في السنة تتلاقي فيه على سنن واحدة في الطعام و اليقظة و الرقاد.

الصيام التزام اجتماعي عند بيجوفيتش في كتابه الشهير (الإسلام بين الشرق و الغرب) يشير بيجوفيتش أن المسلمين اعتبروا الصوم خلال شهر رمضان مظهرا لروح الجماعة،ولذلك فأنهم حساسون لأي انتهاك علني لهذا الواجب،فالصيام ليس مجرد إيمان ،وليس مجرد مسالة شخصية تخص الفرد وحده،وهذا التفسير للصيام كشعيرة دينية غير مفهوم عند الأديان الأخرى. أن الصوم في الدين الإسلامي وحدة تجمع بين التنسك و السعادة . انه مظهرا من مظاهر الالتزام الاجتماعي.

[3] –العقاد: الإسلام دعوة عالمية،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،ص145.

ويقول عن تجربته الشخصية مع الصوم انه قضى في سجن فوتشا ذي الجدران العالية مدة ست سنوات ،كان يشعر ان حالته تسوء عندما يتغذى جيدا،وان الجوع كان يساعده على رفع المعنويات بشكل أفضل.([4]) من هنا فالصوم له أسرار عظيمة و فوائد كثيرة لعل من أبرزها هو محاولة سيطرة الروح على الجسد ،ومن هنا يدعو بيجوفيتش الأمة أن تتبنى تجربة الصوم في أيام معدودة ،في حياتها بأسرها لكي تحقق النظام و المحافظة على الصلاة و تعلم الصبر و اليقين.

الغزالي و أسرار الصوم : لعل من ابرز الفلاسفة المسلمين الذين تحدثوا عن الصوم و أسراره و فضائله هو الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين في الفصل الرابع من الكتاب تحت عنوان أسرار الصوم. يقول الحمد الله الذي جعل الصوم حصنا لأوليائه وجنة،وفتح لهم أبواب الجنة و عرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة،وان بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها. وفي هذا السياق يقسم الصوم إلى ثلاثة أقسام: 1-صوم العوام وهو كف البطن و الفرج عن قضاء الشهوات. 2-صوم الخصوص: وهو كف السمع و البصر و اللسان و اليد و سائر الجوارح عن الآثام. 3-صوم خصوص الخصوص: هو صوم القلب عن الهضم الدنية و الأفكار الدنيوية .[5]

من هنا يتضح أن للصوم أقسام لعل ارفعها و اسماها درجة هو صوم خصوص الخصوص ،لأن به يصوم المرء أن كل شئ ما عدا الله، و يتعلق القلب بالله ، و تتطهر النفس من علائق المحسوسات. لذا يرفعه الغزالي على باقي أنواع الصوم.

الصوم دواء عند الفيلسوف أبن سينا: أبن سينا من الفلاسفة المسلمين الذين أعطوا للصوم اهتماما كبيرا ووصفه كعلاج و دواء في بعض الحالات المرضية. فهو يرى أن الصوم عبادة بالإضافة إلى كونه علاج ودواء أيضا ،بل كان يفضل الصوم على الدواء و يقول انه الأرخص و يصفه للغني و الفقير. وكان يفرض الصوم ثلاثة أسابيع في كثير من الحالات الطبية والمرضية التي تعرض له . ويرى أن الصوم عاملا مهما في علاج الجدري و الزهري.

---

[4]-علي عزت بيجوفيتش: الاسلامى بين الشرق و الغرب،تقديم.عبد الوهاب المصيري،ترجمة.محمد يوسف عدس،دار الشروق،القاهرة،1980،ص76.

[5] -الغزالي: إحياء علوم الدين،دار المعرفة،بيروت،ج1.

مما سبق نرى أن الصوم يمثل مدرسة روحية تهذيبية ، يعمل على سمو الروح و الأخلاق،ويغرس الفضائل النبيلة،ويطهر الروح و النفس ، و يرقي بهما إلى معراج ارقي من المحسوسات.

الدكتور/عماد عبد الرازق–أكاديمي مصري


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
رمضان
شهر الإرادة
والتغيير
الباحث
عصام جمعة

رمضان شهر الإرادة والتغيير

يقول الله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}(الرعد:11).

*** يقول صاحب الظلال رحمه الله في تفسير هذه الآية : [فإن الله لا يغير نعمة أو بؤسًا، ولا يغير عزًّا أو ذلةً، ولا يغير مكانة أو مهانة، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم]**

وهذه دعوة صريحة إلى إصلاح النفس أولًا، وبصلاحها ينصلح البيت والمجتمع كله، ويحدث التغيير المنشود إلى الأفضل.

*** ويقول أديب العربية (مصطفى صادق الرافعي) في كتابه وحي القلم: [وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها، إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر, وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي، الذي يدرب الصائم على أن يمتنع باختياره عن شهوته ولذاته، مصرًّا على الامتناع].**

*** وفي شهر رمضان يتغير كل شيء من حولنا.. برنامج المجتمع اليومي، برنامج الأسرة، والبرنامج الشخصي لكل فرد ، تتغير مواعيد النوم والعمل، ومواعيد الزيارات والطعام, تتغير عبادة الإنسان لربه، فيكون أكثر قربًا لله، وأكثر قراءة للقرآن، وأكثر صلاة، ويشعر بأنه غدًا إنسان آخر.**

*** وشهر رمضان فرصة عظيمة لتحقيق تغيير حقيقي في جانب العبادة والأخلاق والسلوك، وهذا التغيير يحتاج الي التكرار، والإنسان كما يقول بعض علماء النفس يحتاج من اسبوع إلي ثلاثة اسابيع تقريبا ليعتاد علي سلوك جيد، وفي رمضان يمكن تكرار العادات الحسنة أكثر من اربعة اسابيع، مما يعني أننا نستطيع تكرار العادات الحسنة التي تبقى معنا مدى الحياة.**

* وشهر رمضان يعلمنا أننا نستطيع أن نتغير لو أننا قررنا ذلك، فمن أهم شروط التغيير الرغبة والإرادة الصاقة والتي تنبع من النفس، لأن الله قد أودع الإنسان طاقة كبرى للتغيير في هذا الشهر، فإذا التقت الرغبة الصادقة مع الإرادة القوية أمكن إحداث نقله في سلوك الإنسان وأخلاقياته، ومن شروط التغيير أيضا معرفة طرق التغيير الصحيحة، بحيث يعلم من أين يبدأ وإلى أين سينتهي، حتى يحقق الغاية المرجوة من التغيير، وكذلك لابد من التطبيق السليم لطرق التغيير من خلال التدرج فيها، وعدم العجلة في تلمس نتائجها.

* رمضان فرصة للتغيير لمن كان مفرّطًا في صلاته: فلا يصليها مطلقًا، أو يؤخرها عن وقتها، أو يتخلف عن أدائها في جماعة في المسجد .. رمضان فرصة للمحافظة على هذه الصلاة، والف المساجد وعمارتها بالذكر والتسبيح وحلق القرآن، فاستعن بالله واعزم من الآن أن يكون هذا الشهر بداية للمحافظة على الصلاة، وتلبية النداء، والصف الأول؛ لتدخل في قوله سبحانه: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ} (المعارج:34-35). ولتتصف بصفات المؤمنين {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} (المعارج:23).

* رمضان فرصة للتغيير لمن كان مقصرًا في صلاة الفجر وقيام الليل، يقول لهم إنكم تستطيعون المحافظة عليها كل يوم وكل ليلة لو أردتم ذلك، فلماذا الكسل طوال العام؟

* رمضان فرصة للتغيير لمن هجر القرآن، قراءة وتدبرًا وحفظًا وعملًا بأحكامه، حتى أصبح القرآن نسيًا منسيًّا، فرمضان هو شهر نزول القرآن، وبداية التغيير يقول لك: تستطيع أن تختمه في كل شهر لو أردت ذلك، فلماذا الهجر طوال العام؟!

اصطلح مع القرآن، وابدأ صفحة جديدة في رمضان، وحدد لنفسك ختمة وحدك بتدبر، وختمة في مقرأة المسجد، وختمة في الصلاة ، فقد كان للإمام الشافعي رحمه الله ستين ختمة في رمضان.

* رمضان فرصة لمن ابتلاه الله تعالى بتعاطي الحرام من مخدرات ومسكرات أو دخان، وقد صام عن كل ذلك في نهار رمضان، أن لا يفعل ذلك بعد إفطاره، وأن يستمر على جهاده وعزيمته التي جعلته

يمسك طوال ساعات الصيام، يقول للمدمن المدخن: إنك تستطيع بإرادتك أن تمتنع عن تعاطي الحرام، فلماذا لا تقلع عن ذلك إلى الأبد؟!

* رمضان فرصة للتغيير لمن تعود على حياة المترفين، ونشأ على حب الدعة واللين، أن يأخذ من رمضان درسًا في تربية النفس على المجاهدة والخشونة في أمر الحياة؛ فربما يتغير الحال، فقد جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه [اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم]، فلا يكن همك في هذا الشهر ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح.. ليكن همك رضى ربك عزوجل، واحسان العبادة له سبحانه وتعالى، والاهتمام بأمر المسلمين وأحوالهم؛ فكن صاحب همة لا ترضى بالدون ولا تقنع بما دون النجوم, ولنربى أنفسنا على معالي الأمور.

* رمضان فرصة للتغيير من مساوئ أخلاقنا وفحش اقوالنا؛ فالصوم يدرب المسلم علي أن يمتنع باختياره عن الأخلاق السيئة، ويضع له منهجاً للتغيير ويعطية فترة تدريبية من خلال مدرسة الثلاثين يوما، فقد علمنا نبينا صلي الله عليه وسلم [فإن سابَه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤٌصائم] وفي روايه قال [فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين] (رواه البخاري) وقال أيضا: [من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه] (رواه البخاري).

* رمضان فرصة لتغير من جُبل على الشح والبخل والأنانية وحب الذات، وفقدان الشعور بالجسد الواحد والأمة الواحدة، فرمضان شهر تنمية الإحساس، يربى المسلم على الإحساس بالغير، وقد صح في الحديث عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال: [أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تُدخله على مسلم، يكشف عنه كُربةً ، أو يقضي عنه دينًا، ، أو تطرد عنه جوعًا...](صححه الألباني). وتذكر أيها الحبيب أن :

* في الناس صائم لا يجد كسرة خبز، ولا مذقة لبن ولا تمره.

* في الناس صائم لا يجد بيتًا يؤويه، ولا ملابس تستره، ولا غطاءً يدفئه.

وليكن قدوتك في الإنفاق رسول الله صلي الله عليه وسلم فقد كان [أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة](رواه البخاري).

* رمضان فرصة للتغيير لمن كان قليل الصبر سريع الغضب .. يتعلم المسلم من رمضان الصبر والحلم والآناة، فأنت تصبر على الجوع والعطش والتعب والنصب ساعات طويلة، وفي هذا تدريب على الصبر تجاه تصرفات الناس وسوء أخلاقهم، فلا تغضب سريعًا .. وهذه وصية النبي صلي الله عليه وسلم عندما جاءه رجل وقال: أوصني يا رسول الله فرد عليه بكلمة واحدة فقال صلي الله عليه وسلم : [لا تغضب]، فردد مراراً [لا تغضب](رواه البخاري)، وبيّن أن المسلم القوى، ليس بالعضلات المفتوله ولا الشارب الطويل ولا البنيان الضخم، فقال صلي الله عليه وسلم: [ليس الشَديد بالصُرعة، إنما الشَديد الذي يملك نفسه عند الغضب] (رواه البخاري ومسلم).

فعلي المسلم أن يجعل شهر رمضان شهرا للتخليه عن جميع الصفات السلبية، وأن يجعله شهرا للتحلية بكل الصفات الإيجابية، ولن يحدث ذلك إلا في شهر الإرادة والتغيير.

باحث شرعي

عصام جمعة

مجلة شذرات ثقافية

العدد 9

قراءة فى فتاوى الصيام لمحمد رشيد رضا



الباحث والكاتب بدر العبري

Ramadan Kareem

قراءة في فتاوى الصّيام عند محمّد رشيد رضا [ت 1935م]

بدر العبري

باحث وكاتب عماني

هذا المقال نشر في مجلّة التّكوين العمانيّة، عدد 32، رمضان 1439هـ/ يونيو 2018م، ص: 34 – 37، وأعيد نشره في مجلّة شذرات ثقافيّة المصريّة لربما استفاد منه أكبر عدد من القراء، وهذا للعلم والبيان وحفظ الحق.

(1)

هلال رمضان

لقراءة الفتاوى لابدّ من إدراك ثلاثة أمور مهمّة لإنزال وتفكيك الفتوى: الزّمان والمكان، والشّخصيّة القائمة بالفتوى، ومنهج الشّخصيّة وتوجهها الدّينيّ والفكريّ، جميع هذه الأمور الثّلاثة سوف تؤثر في المفتي وإجابته.

واخترنا في هذه الحلقات محمد رشيد رضا [ت 1935م] لأسباب منها أنّ فكره سبق علماء عصره في كثير من المسائل، ومنها أنّه القلم الموثق لحركة الإصلاح في الجانب التّفسيريّ والفقهيّ، والّتي قادها جمال الدّين الأفغانيّ [ت 1897م] ومحمّد عبده [1905م]، والدّعوة الإصلاحيّة امتداد لما قام به حسن العطّار [ت 1835م] وتلميذه رفاعة الطّهطاويّ [ت 1873م].

ولهذا أخذنا نماذج من الفتاوى في ثلاث حلقات متعلّقة بالصّيام، من خلال فتاواه الّتي طبعت بعنوان: **فتاوى الإمام محمد رشيد رضا**، تجميع وتحقيق صلاح الدّين المنجد، ويوسف خوريّ، الدّار العمريّة، الطّبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م، وهي في ستة أجزاء، وأصلها أسئلة وجهت إليه من العالم الإسلاميّ، وتمّ الإجابة عنها في

مجلّة المنار، والّتي توقفت عند العدد الثّانيّ من المجلد الخامس والثلاثين لمدة سبعة أشهر بعد وفاة رشيد رضا، ثمّ أننا نضع مقارنة بين فتاواه وإنزالها الزّمانيّ والمكانيّ، وبين بعض المراجعات الّتي أقمتُ ببحثها في كتابي: **أيام رمضان**.

ولا شك أنّ المرحلة الزّمانيّة والمكانيّة الّتي عاشها رشيد رضا مرحلة حساسة في العديد من الجوانب، لكثرة الجمود والتّقليد السّلبيّ الّتي عاشها العالم الإسلاميّ، وقلّة الدّراسات النّقديّة، وندرة المراجعات، مع قيام المستشرقين بهذه المهمّة، فضلا عن الاستعمار وما خلّفه من تشتت وفقر ومرض، وفي المقابل بداية النّهضة الصّناعيّة، وظهور التّلفاز والإذاعة والتّلفون والتّلغراف والصّحافة والمجلات، والّتي ستؤثر في واقع العالم الإسلاميّ، خصوصا في مصر، والّتي هاجر إليها رشيد رضا، وظلّ بها حتى وفاته عام 1935م.

ومن هذه المسائل المتعلّقة بالصّيام مسألة الهلال، وهي في جملتها تتضمن التّالي: رؤية الهلال عن طريق الحساب الفلكيّ، وقضيّة اتّحاد المطالع، وقضية حجيّة التّلفون والتّلغراف.

أولا: رؤية الهلال عن طريق الحساب الفلكيّ.

حيث وجه سؤال إليه من أسبانيا في عام 1931م، عن صعوبة وجود جهة تحدد دخول الشّهر وخروجه، فهل يتبعون دولة أخرى كمصر أو تونس، أم يعتمدون على الحساب الفلكيّ، فكان الجواب في الجزء الرّابع، صفحة: 1509: [وقد استغربنا بناء على هذا السّؤال تعذر رؤية الهلال عليهم في أسبانية وهو لم يبين سببه، وقد كانت هذه البلاد (الأندلس) في حكم الإسلام، وكانوا يرون الهلال فيها، ولعلّ السّائل ومن معه يقيمون في فندق أو دار لا يمكنهم الصّعود إلى سطحها، ولا يرى مكان الهلال في الأفق للواقف على سطحها، ويتعذّر عليهم رؤيته من سطح آخر، أو من ضواحي البلد، فلا يبعد أن يقال إنّهم يعملون بحسابهما أو حساب من يثقون بعلمه إذا قال إنّ الهلال في ذلك البلد أو في أفقه يولد في وقت كذا، ويمكن رؤيته بالأبصار في ليلة كذا،

فاللّيلة الّتي يمكن أن يرى فيها الهلال بالفعل هي أول الشّهر الشّرعيّ، واختلاف المقاطع ثابت قطعا، فلا يصح اعتماد من في أسبانيّة على نتائج مصر أو تونس .....].

فلما نقرأ هذه الفتوى نقرأها في واقع إسلامي ممزّق، مع تراجع في الجانب العلميّ والمعرفيّ، ومنه بلا شك الجانب الفلكيّ، لهذا قلتُ في كتابي أيام رمضان في تحليل هذه المسألة: [وعليه أغلب الآراء الفقهيّة في الرّؤية تتمثل في ثلاثة مذاهب: المذهب الأول يرى اعتماد الرؤيّة البصرية كليّا في دخول الشهر، وهو الأصل لغيره من الوسائل المساعدة، والحسابات الفلكيّة، وعليه لو أنّ رجلين في نفس المكان، أحدهما يرى بعينيه، والثّاني بتلسكوب متقدم، فادّعى الأول أنّه رأى الهلال، بينما الثّاني ادعى عدم وجوده أصلا، هنا يقبل رأي من ادعى الرّؤية بعينية، حتى ولو أنكرت الحسابات الفلكيّة والوسائل البصريّة المتقدمة رؤية الهلال أصلا، والمذهب الثاني: يعتمد على الحساب الفلكيّ، وولادة الهلال بعد الزّوال، فهذا حدّ كافٍ لدخول الشّهر وخروجه، والمذهب الثّالث يرى الاعتماد على الحساب الفلكيّ في الإنكار لا الإثبات، ولا بأس من استخدام الوسائل الفلكيّة.

وعلى هذه المذاهب الفقهيّة الثّلاثة يتشكل الخلاف في بداية رمضان، وأصل المشكلة حديث الرّؤية ونصّه: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين يوماً.

وفي نظري أرى أن يُقرأ هذا الحديث قراءة قرآنية، وأن يربط بالسّياق الظّرفيّ الزّماني، من خلال أربع مقدمات قرآنيّة: الأولى: خلق الله سبحانه وتعالى الكون في نظام بديع متناسق، وفق درجات محددة لا تقدم فيها ولا تأخير، ومن هذا الشّمس والقمر، فقد خلقهما الله وفق دائرة واحدة لا تتغير ولا تتبدل، قال سبحانه: {**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**} [يس: 39-40]، والثّانية: أمرنا الله سبحانه وتعالى بالنّظر في الكون، ومنه النّظر في الشّمس والقمر، وهما من أكبر آيات الكون، قال سبحانه: {**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ**

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف/ 54]، والثّالثة: بين سبحانه وتعالى أنّ القمر والشّمس حسابهما دقيق جدا، لا يتقدم ولا يتأخر: {**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**} [الرّحمن/ 5]، والرّابعة جعل الله تعالى ذاتَ الهلال ميقاتا للناس والحج، قال سبحانه: {**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**} [البقرة/ 189]، فالله تعالى علّق الميقات بذات الهلال وليس بالرّؤية أو النّظر، وعليه تكون الرّؤية البصرية وسيلة لتحقيق المناط لا غير، والوسيلة تتطور بتطور الزمان والمكان، وفي عصرنا هذا لاشك يحتل الحساب الفلكيّ الصّدارة في إدراك ميقات الهلال.

فالقرآن في بداية إدراك الشّهر استخدم لفظة: شهد في قوله تعالى: {**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**} [البقرة/ 185]، ولم يستخدم لفظة نظر أو أدرك أو شاهد أو رأى، فالشّهادة هنا تحوي التّعددية، وتشمل القطع بحسب الوسيلة المستخدمة، وكذلك المعاينة والحضور، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان.

أمّا إذا جئنا إلى رواية: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته نجدها أقرب إلى الوسيلة منها إلى التّشريع، فهنا يحث النّبيّ الناسَ على مشاهدة الشّهر باستخدام الوسيلة المتاحة وهي الرّؤية البصريّة، وقد بين لهم العلّة، وهي كونهم آنذاك في الغالب أمّة أميّة لا تكتب ولا تحسب، ومثل هذا وسيلة الدّابة في النّقل، ووسيلة السّيف في الحرب، فالرّواية لا تفيد أنّ الرّؤية البصريّة هي الوسيلة الأولى والأخيرة لإدراك الشّهر، وإنّما استخدمت بما يقدر عليها في عصرهم، فالغاية الإدراك والمشاهدة، والوسائل تختلف باختلاف الزّمان والمكان.

وعليه نخلص أنّ المذهب الأول يعتمد الرّؤية البصريّة كليّا في دخول الشّهر، فهذا المذهب في جوهره يدور حول رواية الرّؤية، ويعتبرها في حدّ ذاتها تشريعا لا وسيلة، وعليه الحساب الفلكيّ لا يعتبر في إثبات الرّؤية، وبعضهم يبالغ إذ يعتبر أنّ

الحساب الفلكيّ ظني الدّلالة، والرّؤية البصريّة أقوى حجّة منه، بل حتى الوسائل المساعدة يقدّمون عليها الرّؤية البصريّة.

وأمّا المذهب الأخير فهو الّذي يرى الاعتماد على الحساب الفلكيّ في الإنكار لا الإثبات، ولا بأس من استخدام الوسائل الفلكيّة، فهذا وإن تقدّم في اعتماد الحساب الفلكيّ في الإنكار؛ إلا أنّ التّفريق بين الإنكار والإثبات في حقيقته تحكم بلا دليل، وذلك لأنّ الهلال متحقق وجوده، ودرجة رؤيته موجوده، إلا أنّ لأسباب الجو قد لا يُرى، مع وجوده قطعا حسابيّا وفق درجة الرّؤية، وقد يرى الرّائيّ فيظنّه هلالا، وهو غير الهلال فقد يكون نجما ساطعا، أو طائرة ونحوه، وعليه يبقى هذا الرّأي يدور في مجمله وفق حديث الرّؤية أيضا.

وعليه يكون المذهب الثّاني وهو الّذي يعتمد على الحساب الفلكيّ، وولادة الهلال بعد الزّوال، فهذا أقرب إلى المقدّمات القرآنيّة، وروح التّشريع الرّبانيّ، وهو الجامع بين العقل والنّقل، والمسخر لسنن الله تعالى في الكون، والمستفيد منها؛ لأنّ هلال رمضان واحد في الأرض جمعاء، شرقا وغربا، والأمّة تقدّمت في علومها، فينبغي أن تكون الوسائل المتبعة في شرائعها موافقة لهذا التّطور العلميّ] انتهى مع بعض التّصرف.

لهذا نرى أنّ تصرّف الرّجل كان رشيدا من اعتماد الحساب لأنّه أدق، ولو طبّق اليوم لخلّص الأمّة من هذا التّناقض خاصة في الأقطار المتقاربة، فهؤلاء مفطرون وهؤلاء ممسكون، ثمّ إنّه يخلّصهم من التّناقض لسنوات زمنيّة طويلة قادمة، ويكون للعلم كلمته واحترامه.

ثانيا: قضيّة اتّحاد المطالع.

حيث وجه إلى رشيد رضا سؤال من السّودان بتأريخ السّودان 23 جمادى الآخرة 1325هـ، يبين له انقسام النّاس في السّودان إلى ثلاث فرق: فرقة تحتج بظهور هلال رمضان أو الفطر في قطرها وثبوته بالتّواتر، وفرقة تعتمد على قنابل الحكومة المطلقة إيذانا لدخول رمضان أو العيد، وفرقة تعوّل على رواية منسوبة إلى الإمام

الصّادق [ت 148ه] في كتاب عجائب المخلوقات للقزوينيّ [ت 1283ه]: قال جعفر الصّادق: إذا أشكل عليك أول شهر رمضان فعدّ الخامس من الشّهر الّذي صمته في العام الماضي فإنّه أول يوم من شهر رمضان الّذي في العام المقبل، وقد امتحنوا ذلك خمسين سنة فكان صحيحا.

فكان جواب رشيد رضا في الجزء الثّاني، صحيفة: 619: [.... وقد اختلف علماء السّلف في المسألة، فقيل يعتبر كلّ أهل بلد رؤيتهم بعدت أو قربت، وقيل لا يلزم أهل بلد برؤية أهل بلد آخر إلا إذا ثبت عند الإمام الأعظم فبلغه؛ لأنّ حكمه نافذ في جميع البلاد، وقيل إن تقاربت البلاد كان حكمها واحدا، وإن تباعدت عمل كلّ برؤيته، وبعضهم ناطه باختلاف المطالع وهو الوجه العلميّ، وبعضهم ناطه بمسافة القصر وهو قياس فقهيّ ... ونقول إذا اختلفت الرّوية في البلاد المتقاربة فإن كان هناك حاكم شرعيّ ورجّح شهادة وبّلغها للنّاس وجب أن يعتدّوا بها، ولا يلتفتوا إلى رؤية الآخرين لينضبط الأمر، ولا يكونوا فوضى في إقامة ركن من أركان دينهم، هذا صائم وهذا مفطر، وإن اختلفت في البلاد المتباعدة فهناك النّظر والاجتهاد ...].

وقبل التّعليق إلى قضيّة الفتوى لابدّ أن ننبه إلى لطيفة وهي أنّ قضيّة اختلاف المطالع عند الفقهاء تختلف عند المعاصرين، وهذا يختلف كليّا عن مراد الفلكيين، وهناك تداخل في المفاهيم، فاختلاف المطالع قديما نتيجته صعوبة وسائل التّواصل بين القرى والمدن، لذا حدّه بعضهم بمسافة القصر، وبعضهم استخدم وسائل تقليديّة كالحصان أو المدفع أو إشعال نار في مكان مرتفع، وعليه يحمل حديث كريب مولى ابن عباس [ت 98ه] أنّ أم الفضل بنت الحارث [ت في خلافة عثمان بن عفان 23 – 35ه] بعثته في حاجة إلى معاوية [ت 60ه] بالشّام، قال: فقدمت الشّام فقضيت حاجتها، واستهل علي رمضان وأنا بالشّام، فرأيتُ الهلال ليلة الجمعة، ثمّ قدمت المدينة في آخر الشّهر، فسألني عبد الله بن عباس [ت 68ه]، ثمّ ذكر الهلال، فقال متى رأيتم الهلال؟ فقلتُ: رأيناه ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيته؟ فقلتُ: نعم، ورآه النّاس وصاموا وصام معاوية، فقال: لكنا رأيناه ليلة السّبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، فقلتُ: فلا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا، هكذا أمرنا رسول الله -

صلّى الله عليه وسلّم-، فهذه الرّواية تماثلها رواية: نحن أمّة أميّة لا تكتب ولا تحسب، فهي من الرّوايات الظّرفيّة المرتبطة بطبيعة التّطور الزّمانيّ والمكانيّ في وسائله وصيرورة حياته.

أمّا اختلاف المطالع عند المعاصرين فهي مرتبطة بالحدود الجغرافيّة للبلد، وليس بالمعنى القديم، ولو تقاربت البلدتان تقاربا كبيرا؛ لرأينا من هو على حدود هذه البلدة مفطرا، وتلك البلدة ممسكا في حالة اختلاف الرّؤية!!!

أمّا على الاعتبار الفلكيّ فالقمر واحد، فهو في دورانه حول الأرض يقترن بالشّمس في نصفه الكامل وهنا يبدأ ولادة قمر جديد، فهو بالولادة قد ولد في الأرض، وأصبح شهرا جديدا، وهذا قدر متفق بين الفلكيين، فهو قد يولد في أيّ جزء من الأرض، إلا أنّ الإشكاليّة في اشتراط الرّؤية وفي درجتها، وإن قلنا بهذا إلا أنّه فلكيّا على الأقل سوف يشمل مناطق جغرافيّة كبيرة، أمّا ما نراه اليوم من خلاف لا علاقة للفلك والعلم به، ولا بقضيّة اختلاف المطالع!!

وأشار رشيد رضا إلى لطيفة مهمّة في حالة اختلاف الآراء فالمرجع الحاكم أو من ينوب عنه من المؤسسات، ولا ينبغي الشّقاق والتّنازع في هذا، فالمسألة واسعة جدّا، والتّعددية في الرّأي لا تفسد الوحدة بين النّاس، فضبط الأمور ولو كان مخالفا لرأيك إنّما هو لمصلحة الجميع، إلا أنّ النّقد مساحة واسعة إن كان علميّا ومنهجيّا.

ثالثا: قضية حجيّة التّلفون والتّلغراف.

حيث وجه إليه عام 1910م سؤال من تونس وفيه ذكر حدوث الخلاف في الصّوم والفطر بسبب أنّ الفقهاء في تونس لا يجوّزن بخبر التّلفون والتّلغراف في الصّوم والفطر؛ لأنّ التّلغراف بيد غير المسلمين، ولتشابه الخطوط والأصوات، فكان الجواب في الجزء الثّالث، صحيفة 875: [.... الخطب في هذا سهل؛ لولا أنّ أكثر المسلمين صاروا لا يحبّون السّهولة واليسر في الدّين، وهو من أصول الإسلام بنص الكتاب والسّنة، فالعمدة في الشّرع على ما يحصل به التّصديق والاطمئنان من الأخبار

أو العلامات الّتي تدلّ على ثبوت أول الشّهر، وكلّ من التّلغراف والتّلفون طريق من طرق التّصديق والاطمئنان ...].

وعموما كان هذا كما أسلفنا في بداية المقال في فترة مبكرة، وكثيرا من يتحكم بهذه الوسائل هم المستعمرون، وعليه كان التّحسس من البعض يعذرون عليه، أما ونحن نعيش اليوم في عالم الفضائيات والشّبكة العالميّة، ووسائل التّواصل الاجتماعيّ، فالحال اختلف جدا، ومع هذا كان رأي رشيد رضا متقدّما جدّا حسب زمان فتواه!!!

(2)

وعلى الّذين يطيقونه

من المسائل الّتي وجهت إلى رشيد رضا من السّودان عام 1907م، والّتي تتعلق بعمال السّكة الحديديّة حيث يجهدون أنفسهم في ورش جدرانها وأسقفها من حديد، وليس لهم مصدر رزق آخر، فيشقّ عليهم الصّيام، فكان جوابه في الفتاوى في الجزء الثّاني، صفحة 633: [يباح لأصحاب الأعمال الشّاقة الّتي عليها مدار معيشتهم إذا كانوا يتحملون مشقة شديدة بالصّيام أن يفطروا ويطعموا عن كلّ يوم يفطرونه مسكينا؛ لأنّ الحرج مرفوع من الدّين بنص القرآن، ..... وبه فسّر الأستاذ الإمام – أي محمّد عبده - قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} البقرة/ 184].

وما أشار إليه رشيد رضا فصّلته في كتابي أيام رمضان حيث قلتُ فيه: [إن الخلاف في التّعامل مع الآية حيث يرى بعضهم أنّ الآية محمولة على طوْق، أي يطيق الفعل ولكنّ مرخص له الفدية إذا أراد عدم الصّيام ولو كان قادرا كما، وبعضهم يرى من طوّق أي الّذي يقدر الصّيام مع الكلفة والمشقة كالكبير والعاجز، وعليه كانت قراءة أخرى مروية عن ابن عباس ت 68هـ وهي: وعلى الّذين يُطوَّقونه، من طوّق، من هنا سنجد التّناقض بين فريقين من المتقدمين من الصّحابة والتّابعين، ففريق يرى نسخها، وفريق ينكر ذلك رأسا، ومن قال بالنّسخ اختلفوا أيّ آية نسختها، فقيل: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، وقيل: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ} ، وقيل غير ذلك.

ومن الرّوايات الّتي أفادت النّسخ رواية معاذ بن جبل [ت 18هـ] ونصها: أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - قدم المدينة فصامَ يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كلّ شهر، ثم إنّ الله جل وعز فرض شهر رَمضان، فأنزل الله تعالى ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} حتى بلغ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}، فكان من شاء صامَ، ومن شاء أفطر وأطعمَ مسكينًا، ثم إنّ الله عزّ وجل أوجب الصّيام على الصّحيح المقيم، وثبت الإطعام للكبير الّذي لا يستطيع الصّوم، فأنزل الله عز وجل: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ} الآية.

وذهب آخرون أنّ الآية لم تنزل في الجميع وإنّما كانت خاصة بالشّيخ والشّيخة فرخص لهما ولو كانا مستطيعين الصّيام أن يفطرا مع الفدية، ثمّ نسخت بقوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}.

وممّن أنكر النّسخ أيضا اختلفوا فقالت طائفة منهم إنّ الآية باقية على المريض مرضا مزمنا وعلى الكبير العاجز الّذي لا يستطيع الصّيام، إذ نزلت فيهم رأسا، وعلى هذا قاس ابن عباس ت 68هـ الحامل والمرضع، فعن سعيد بن جبير [ت 95هـ]، عن ابن عباس: أنّه رَأى أمَّ ولدٍ له حاملا أو مُرضعًا، فقال: أنت بمنزلة الّذي لا يُطيقه، عليك أن تطعمي مكانَ كل يوم مسكينًا، ولا قَضَاء عليك.

وذهبت طائفة أنّ قراءة الآية في الأصل: وعلى الّذين يُطوَّقونه، وقالوا: إنّه الشّيخ الكبير والمرأة العجوز اللّذان قد كبرا عن الصّوم، فهما يكلفان الصّوم ولا يطيقانه، فلهما أن يفطرا ويطعما مكانَ كلّ يوم أفطراه مسكينًا.

وذهب قوم أنّ كلمة يُطِيقُونَه مقدّرة بمحذوف أي لا يُطِيقُونَه، فهنا حذف في الأصل، وعليه تحمل على عدم الاستطاعة والقدرة كالكبير والعاجز إذ يرخص لهما الفدية بدلا من الصّيام.

ومن المعاصرين من ذهب أنّ الآية باقية على القادر وغيره، إن شاء صام وإن شاء أفدى .... وإذا جئنا إلى هذا الجزء من آية الصّيام لا بدّ من قراءته وفق الجزء السّابق والتّالي، أمّا السّابق فقوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ

أَيَّامٍ أُخَرَ}، والتالي: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، وعليه تظهر لنا هذه المعادلة:

المقدّمة الأولى: المريض والمسافر يفطران ويقضيان، **والمقدّمة الثّانية:** الّذي يطيق الصّيام يفطر مع الفدية، وعليه الأصل الأولى بالتّرخيص على المريض والمسافر لعلة المشقة، فالفدية الأولى لهما، لذا لزم حمل كلمة: يُطِيقُونَه، على: يُطوَّقونه، بدلالة الجزء الآخر: وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، أي إن استطاع، ولكن للمشقة الشّديدة الدّائمة كانت الرّخصة بالفدية.

وعليه روايات النسخ تتعارض مع آيات الصّيام وإن صح سند بعضها، فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} يعمُّ الجميع بلا استثناء، من هنا كان التّفصيل المتناسق بعد ذلك للمريض والمسافر والّذي يشق عليه الصّيام في جو متناسق تنزيل من رب حكيم، فهذه الروايات تجعل النّصوص القرآنيّة متضاربة، فالأولى إبعادها وترك النّص القرآني يفيض بنورانيته وأحكامه دون حاجز أو معارض.

وترك هذا الجزء من القرآن ترك حكم قرآني الأمّة بحاجة إليه في سائر عصورها، ونحن اليوم بحاجة إليه خاصة في المناطق الّتي يتناصف فيها اللّيل والنّهار في العام الواحد [أي يكون اللّيل ستة أشهر والنّهار مثله]، أو يطول فيها النّهار بحيث يشق الصّيام، فمن العجب أن يقدّر الصّيام عند هؤلاء بساعات أمّة بعيدة عنهم، فيفطرون والشّمس في كبد السّماء، والله تعالى يقول: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} ، والله تعالى عليم بشرعه زمانا ومكانا، لذا كان التّناسق في آيات الصّيام، {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} فهذه الأمم يشق عليها الصّيام فيرخص لها الفدية لعدم القدرة على القضاء.

والخلل يعود أيضا في قصر رمضان على جانب ترك الطّعام والشّراب، وإن كان هذا مجسّدا للصيام إلا أنّ رمضان فيه التنافس على كافة أنواع الخير والبر، ومن هنا كان الجزء الآخر مباشرة: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ}.

أمّا الحامل والمرضع فقياسهما على الكبير والعاجز قول وجيه، وأولى من قياسه على المريض والمسافر، فهما لطول مدة الحمل ومن ثمّ الرّضاع وقد يأتي بعده حمل ورضاع آخر في حكم غير القادر، وعليه كان لهما الفدية دون القضاء، إمّا إلزامهما بالفدية والقضاء فهذا بعيد عن الصّواب، فالذّمة لا تشغل بأمرين في وقت واحد.

ويُقاس على هذا أيضا من يشق عليه الصّيام بسبب العمل المرهق الشّديد، كالبناء خاصة في الدّول شديدة الحرارة، إذا طال عليه الأمد في هذا العمل، ولم يستطع القضاء هنا يُرخص له في الفدية]. انتهى بتصرّف بسيط.

ومع ترخيص رشيد رضا للعامل إلا أنّه شدد على الطّالب كما سُئِل عام 1903م من تلميذ بمدرسة مسيحيّة في مصر: هل الدّراسة عذر للإفطار في نهار رمضان؟ فكان جوابه في الجزء الأول، صحيفة 26: [أنّ أكثر المسلمين يعملون في رمضان في أول النّهار أي قبل اشتغال المدارس بدروسها إلى قبيل الغروب، فلا أرى أنّ السّائل وقع في عمل شاق لا يستطيعه الشّاب في هذه الأيام القصيرة المعتدلة الّتي لا حرّ فيها ولا زمهرير، وما هو إلا أنّ عادته تغيّرت بعض التّغيير .... ولا مشقة هناك تبيح الفطر في هذا العمل الاختياريّ إلا أن يكون هناك ضعف أو مرض، وإنني أرجو الله تعالى أن يعينه إذا غلب دينه وعقله على وهمه ...، فلا يجد من الجهد ما يتوهمه الآن]، والحقيقة أنّ الدّراسة والامتحانات لا تحمل محمل العمل الشّاق، وخاصة في عصرنا فهي مكيفة ومهيأة، ويُراعى فيها وقت الصّيام، ومع هذا الاستثناء موجود ليس كقاعدة عامّة مطردة، وإنّما كمراعاة فرديّة لظروف خارجيّة!!

(3)

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ

وهنا مسألة وجهت إلى رشيد رضا عام 1910م تتمثل أنّ أهل السّاحل رأوا أنّ الشّمس غربت فأفطروا وصلّوا المغرب، ثمّ صعدوا في منطاد ورأوا الشّمس بيضاء نقيّة لم تغرب، ما حكم صومهم؟ فكان جوابه في الجزء الثّالث، صحيفة 854: [المعتبر

في غروب الشّمس شرعا هو أن يغيب قرصها تحت الأفق، ويذهب شعاعها عن جدران المباني والجبال، ولكلّ أحد حكمه بحسب ما يشاهده في ذلك، ومن أفطر وصلّى المغرب بعد غروبها، ثمّ ارتفع في المنطاد فرآها؛ لا يفسد صوم يومه ذاك، ولا تجب عليه إعادة المغرب فيما يظهر لنا؛ لأنّه لا يكلّف في يوم واحد تكرار فريضة واحدة، وقد مضت الأولى على الصّحة فلا يؤثر في صحتها ما يطرأ بعدها .... كما أنّ الّذي يفطر يوما من أثناء رمضان ثمّ يسافر إلى بلد تختلف مطالعه عن مطالع بلده، فيجد أهله قد صاموا بعد أهل بلده بيوم، وأكملوا عدّة رمضان ثلاثين يوما، فوافقهم وصام الحادي والثّلاثين، فكان هو الثّلاثين له].

وهنا مسألتان، المسألة الأولى مسألة الغروب، وقد فصلتها في كتابي أيام رمضان، وقلت فيها: [حدث خلاف في التّعامل التّأويليّ مع الآية، والخلاف في نظري هنا طبيعي؛ لأنّ الآية أعطت عمقا كبيرا للنّظر والتّدبر والتّأويل، كعادة مفردات القرآن .... والبيان من بان الشَّيءُ أي ظهر واتّضح، ومنه الظّهور والكشف، وهنا استخدم الله تعالى لفظة البيان ولم يستخدم لفظة العلم؛ لأنّ الثاني يفيد القطع والأول يفيد الظّن، والعمل في هذا يناسبه الظّن لأنّه يسع جميع الأفراد أولا، كذلك يمكن به التّدرج الزّمانيّ في الكشف المعرفيّ، بجانب سعته للمكان والحضارة، ولهذا استخدم القرآن لفظة البيان، وترك للنّاس مساحة واسعة في النّظر والتّدبر أولا ثم الإنزال ثانيا، وهنا استخدم الله تعالى التّشبيه من خلال خيطين، أحدهما أبيض والثّاني أسود، فالأبيض يرى باللّيل خلاف الأسود، ولكن قدرة رؤيته قد تختلف من شخص لآخر، ومع ذلك كانت سعة القرآن الكريم، وعليه فهم بعض الصّحابة الخيطين أنّهما على الحقيقة خيطان، وهذه طبيعة المدارك البشريّة، تتفاوت بين النّاس في فهم المراد من النّص، والحاصل هما بالاتفاق جملة اللّيل والنّهار، أو على الخصوص بداية النّهار من اللّيل، أي انشقاقه منه على اعتبار أنّ الليل هو الأصل لا النّهار.

ولئن أذن بلال [ت 20هـ] حينها فيمتنع النّاس عن الأكل والشّرب في عهده عليه الصّلاة والسّلام خلافا لأذان ابن أمّ مكتوم [ت 14هـ وقيل: 15هـ]؛ فليس الجميع يسمع الأذان، ثمّ العديد منهم على سفر، ولا توجد حينها ساعات وتقاويم، ولذا كان النّص

مسايرا والطّبيعة الإنسانيّة من حيث الإدراك البصريّ والعقليّ، ويتميز بالشّمول زمانا ومكانا.

فهنا الله تعالى يقول له بكل بساطة كل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقد يهتدي إليه وهو في انتشاره في الأفق، وقد يهتدي إليه والفجر قد أسفر، بل ربما يهتدي إليه والفجر قد طلع عليه، خاصة وقت السّحاب والمطر، ومع ذلك الصّيام صحيح؛ لأنّ اجتهاده في البيان قاده إلى هذا، والأصل بقاء خيط السّواد ليأكل ويشرب، فإذا بان له خيط البياض توقف عن ذلك.

ومن ناحية أخرى أعطى النّاس مساحة واسعة أيضا في إدراك البيان، بغض النظر عن الخلاف الفقهيّ في ماهية ذلك، إلا أنّ الخلاف الفقهيّ تجربة لفهم النّص وليس النّص ذاته.

وعليه للعلم الحديث كلمته من خلال الإدراك، والوصول إلى أعلى درجات البيان من خلال قطعيّة العلم، ثمّ لبيان ظهور الفجر من اللّيل أو حالة الغروب ينبغي أن تكون الكلمة من حيث الحقيقة العلمية للفلك؛ لأنّ الله تعالى أعطى ذلك نفسه للعقل الإنساني ليتفكر في سنن الكون بما فيه من نجوم وكواكب وجريان وأفلاك ليهتدي بها في ظلمات البر والبحر، ومنها ظلمات اللّيل وبيان النهار]. انتهى.

وأمّا المسألة الثّانية فتدخل في رؤية الهلال واختلاف البلدان في ذلك كما أسلفنا، فإذا سافر الصّائم إلى بلد متقدم في الصّيام، أو متأخر بيوم أو يومين، عليه في كلا الحالتين متابعة أهل المكان الّذي يقيم فيه؛ لأصل الاتباع مع الجماعة، واستئناسا برواية: الصّوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون، والأضحى يوم تضحون، فإن كان صيامه متقدما مثلا بيوم، ولم يهل الهلال في البلد النّازل فيه، فعليه هنا أن يصوم معهم، ولو أهل في بلده، إلا إذا زاد عن ثلاثين يوما، فقيل هنا يفطر لأنّ الشّهر لا يزيد عن ثلاثين يوما، ويفطر هنا سرا.

أمّا إذا كان البلد الّذي نزل فيه متقدما في أيام الشهر، مثلا: عنده بحساب بلده ثمانية وعشرون يوما، وأهل الهلال في البلد النازل فيه؛ هنا يفطر معهم، ثمّ يقضي بعد العيد، أو عند الرّجوع إلى بلده.

هذه أهم المسائل، وهناك أخرى تركتها لمناسبة أخرى!!


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
احتضار فيلسوف
د. على حسن الروبى

احتضار فليسوف

كانت الرُّحَضاء تعلو جبينَه، وصدرُه يرتفع وينخفض بشدةٍ، والآهات التي تخرج منه لها صوتٌ عالٍ مسموعٌ، لكن لا أحد معه، لا أحد يحاول التخفيف عنه ولو بالكلام، كم نحن محتاجون إلى الناس وإنْ زعمنا أننا مُسْتغنُون عنهم تماماً!

أهكذا يموتُ وحدَه بعد أن عاش حياتَه كلها للناسِ، ونذرَ عمرَه كلَّه لتثقيفهم وتنويرهم، فلم يتزوجْ ولم يفكرْ في تكوين أسرة حتى لا ينشغل بأي شيءٍ آخر سوى الكتابة والتأليف. إنه لم يكن يتوقف عن الكتابة حتى في أيام مرضه، بل لا بد أن يكتب ولو مقالة صغيرة، ولكن مرضه هذه المرة مختلفٌ، فهو لا يقوى على مجرد النهوض.. يبدو أنه المرض الأخير!

آهٍ لو مات في هذه الساعة! سيموت منفرداً لا يسمع بموته أحدٌ ولا يبكي عليه باكٍ حتى يأتي الخادم صباح غدٍ.

كيف سيكون وقْعُ خبرِ وفاته على الناس؟ وهل سيحزنون لفراقه بعد أنْ قدّم لهم كلَّ هذا العطاء منقطع النظير؟

هل ستقوم وسائل الإعلام بنعيه على الوجه الذي يليق به وبمكانته في دنيا الأدب والفكر؟

ماذا ستقول عنه الأوساط الثقافية والفنية بعد رحليه؟

ترى كيف سيكون شعور خادمه المخلص "إدريس" عندما يجده قد قضى؟ هل سيقوى على هذا الفراق بعد عِشرةٍ بينهما دامت 30 سنةً؟ هل سيغلبه هول المفاجأة ويُذهله عن المبادرة إلى إخبار الزميل الدكتور (أمجد) الذي سيتولى أمور التشييع والدفن على ما اتفقا عليه مسبقاً؟

الألم يزداد وآهاته المنبعثة من أعماقه تُحدث صدًى في الغرفة الرطبة التي يرقد على السرير الذي بوسطها، لو يمكنه أن يتجاوز هذا الألمَ وتعود إليه قواه مرةً أخرى، ولو لمدة نصف ساعة فحسب ليكتب عن " الآم الموت " وكيف هي، أو ليُدبِّج كلمةً عن " فلسفة الموت " ...

حالته تزداد سوءً، النهيج يرتفع بصورةٍ حادةٍ نظراً لازدياد الألم، والعرق يتصبب من جبينه وليس يقوى على مجرد مسحه بمنديله حتى لا يدخل إلى عينيه، كأن روحُه ستفارق جسدَه الآن.

فجأةً ينشق جدار الغرفة ويدخل منه أشخاصٌ وجوهُهم مرعبةٌ جداً كما أن ملابسَهم سوداءُ قبيحةٌ، أحسّ برعبٍ شديدٍ يجتاحه يكاد يُنسيه الألمَ المريرَ الذي يعانيه .

قال بصوتٍ مرتجفٍ:

- من أنتم؟ وماذا تريدون؟

قال أحدهم بصوتٍ بغيضٍ:

- نحن الذين كنت تنكر وجودنا وتسخر منه وتكتب في ذلك الكتب والمقالات وتُعطَى على ذلك الجوائز!!

- أُنكرُ وجودَكم؟!

- نعم! ألم تك تسخرْ من وجود الملائكة والجن والشياطين وتقول: إنها خرافات لا ينبغي التصديق بها في عصر سفن الفضاء؟!

آخر:

- نحن الملائكة! ملائكة الموت جئنا لقبضِ روحك!

- إلى أين تذهبون بها؟

- إلى العذاب

- العذاب؟ أنا مصيري إلى العذاب؟!

- ولم لا؟! ألم تك تاركاً للصلاة، مصراً على شرب الخمر، مقترفاً لفاحشة الزنا، إلى سيئاتٍ كثيرةٍ جداً بجوار ذلك.

بارتجافٍ شديدٍ:

- لكني لم أقتلْ أحداً ولم أسرقْ مال أحدٍ طوال عمري، وما اعتديت على أحدٍ في حياتي.

- ولا حتى على الله؟!!!

- الله؟!

- أجل! ألم تسخرْ منه ومن دينه في كتاباتك؟! ألم تعترضْ على أوامره في جُل أعمالك؟ ألم تبذلْ جهدك في تضييع هيبته في النفوس وصرف الناس عن أحكامه وشريعته؟

- أنا كنت ...

- مثلا في كتابك "الحرية" ص **100**: " لن يتحرر الإنسان حق التحرر ما لم يقتل في داخله كل هيمنةٍ خارجيةٍ تحت اسم الإله أو الدين أو الأخلاق" وفي روايتك " رباب " ص **200** قلت على لسان بطلك : " الله والشيطان وجهان لعملة واحدة"

وفي أطروحتك " التراث " ص **70** : " قطع يد السارق ورجم الزاني في القرن الحادي والعشرين همجية غير مقبولة"

وفي كتابك " رسائل تنويرية" " ص **20** " الحديث عن الموت وما بعده علمٌ لا ينفع وجهلٌ لا يضر ولن تتقدم أمة أكثر علومها وكلامها فيما لا ينفع"

وفي مسرحية ...

آخر مقاطعاً:

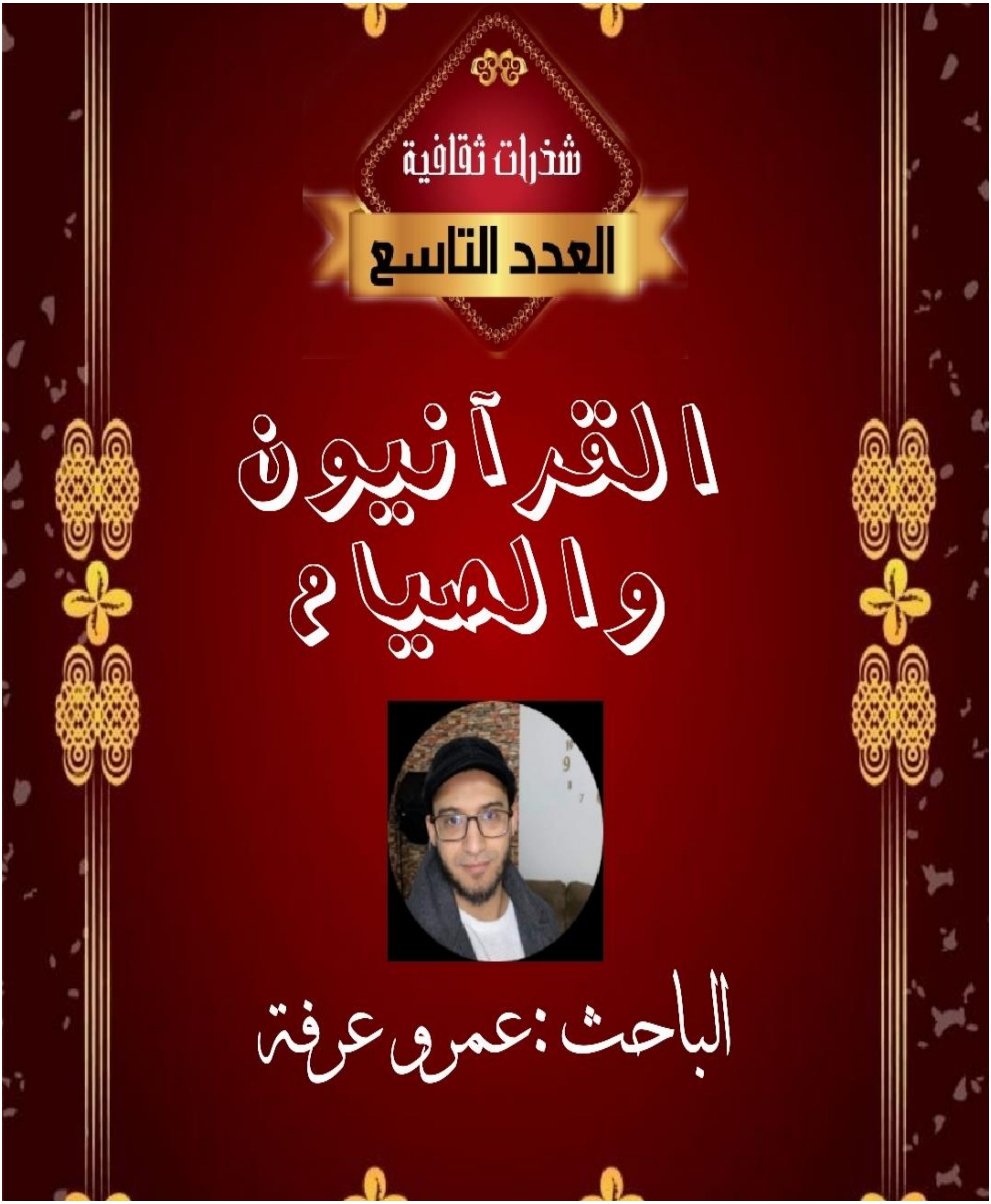
- كفى لسنا هنا لمحاسبته بل لنقبض روحَه وسيعرض عليه كل ذلك أمام الله تعالى يوم القيامة.
- أنا خدمتُ الناس وأفنيت عمري في ذلك ..ثلاث شهادات دكتوراه من جامعاتٍ مختلفة في حقول علمية متنوعة ،عشرون كتاباً في الفلسفة وغيرها، تسع رواياتٍ، خمس عشرة مسرحية، عشرات البحوث، مئات المقالات!
- كل ذلك ذهب هباءً منثوراً ولا قيمة له عندنا، بل هو من أسباب شقائك؛ فقد كنتَ تصرف الناسَ عن التفكير في آخرتهم التي تنتظرُهم، وعن الاستعداد لهذا الموقف الذي أنتَ فيه الآن ..كنتَ تملأ حياتَهم بتفاهاتٍ ومُلهياتٍ دُنيويةٍ سافلةٍ، فيغرقون في الغفلة والاغترار بالدنيا وشهواتها، ويُعرضون عمّا خُلقوا له، ويَنْسَون المصير الذي سيصيرون إليه

حتى تباغتهم الحقيقةُ التي تعيشها أنتَ الآن يا حضرة الفيلسوف، فيندموا حيث لا ينفع الندمُ.

- لكني كنت أريد بهذا السعادةَ للناس!
- قد أضللتَهم وأهلكتَهم وجنيتَ عليهم.
- ...
- هيا الآن أعْطنا روحَك لنهبطَ بها إلى سجين، ثم لتذوق عذاب القبر ، وتعرف بنفسك ما إذا كان حقيقةً أو خرافة فأنت لا تؤمن إلا بالمنهج التجريبي، أليس كذلك؟!
- مهلا مهلا ! صدَّقْتُ وآمنتُ. اتركوني أرجعْ إلى الدنيا أخبر الناس بهذه الحقائق، وأعيش حياتي على ضوئها.
- كلا! انتهتْ فرصتُك! أمهلَك اللهُ **75** عاماً، وكم قرأتَ واطَّلعتَ وكم رأيتَ من دلائل على قدرة الله وحكمته وصدق رسوله، وكان عندك القرآن فيه الهدى والشفاء، وكان بإمكانك أن تراجعَ نفسَك، وكم مرةٍ بدا لك خللُ منهجك لكنك كنتَ تكابر وتركن إلى الشهوات الحاضرة والشهرة العريضة التي حقَّقْتَها، والآن حان انتقالك إلى الدار الآخرة، فلا يمكن أن تعود إلى الدنيا.
- فرصةً أخيرةً!
- كلا! هاتِ رُوحَك!
- آه آه!! اتركوني اتركوني! رويداً رويداً!! آهٍ آهٍ....

استيقظ الدكتور " ذكي " وهو ينهجُ نَهَجاً شديداً وقد وضع يده على حلقومه، رافعاً صوتَه بالتأوه حتى استيقظتْ زوجتُه الدكتورة " نوال" منزعجةً.

- "ذكي " ماذا أصابك؟
- لا شيء لا شيء، فقط "كابوسٌ" مزعجٌ جداً، ذلك أني كنتُ أقرأ قبيل نومي في أحد الكتب الرجعية التي تتكلم عن الموت والآخرة!


شذرات ثقافية
العدد التاسع
القرآنيون
والصيام
الباحث: عمرو عرفة

<u>القرآنيون والصيام</u>

بمناسبة قدوم شهر رمضان الفضيل ، و بحثنا ما زال مستمرا عن القرآنيين أو (منكري السنة) ، فأردنا في مقال هذا الشهر ، أن نتكلم عن منهج القرآنيين وطريقتهم العقيمة في فهم النصوص ، إن كانوا يفهمون ، وكيف أن هذه الفرقة الضالة تهدم الدين بمنهجها الضال ، لمجرد إنكارهم السنة ، وقد دار حوار بيين وبين أحدهم قريبا ، فسألته سؤالا ، قلت : من شيوخكم في هذا المنهج من علماء السنة من القرن الثاني إلى الآن ؟ ، لكن في الحقيقة لم يجب ، وأنى له الإجابة .

<u>مقدمة مهمة :</u>

جماعة القرآنيين بدأت تغزو الهند منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وكان من بدأ في بث هذه الأفكار الخبيثة هو السيد أحمد خان ، غير أن مفعولها كان سريًا ، حتى جاء من نشرها وأذاع فكرها ، وهم: **محب الحق عظيم آبادي** ، **وعبد الله جكرالوي والذي كان نشيطًا جدًا في نشر أفكار القرآنيين حتى قال مقولته المشهورة <u>(هذا هو القرآن الموحى به وحده من عند الله إلى محمد عليه الصلاة والسلام وأن ما عداه فليس بوحي</u>) وهذه حقيقة القرآنيين واضحة صريحة في كل كلامهم وإن لم يصرحوا بها** ، **وأحمد الدين الأمرتسري** ، **وغلام أحمد برويز** ، وفي ظل الاحتلال البريطاني للهند كان من مصلحتها دعم هذه الجماعة على المبدأ المعروف وهو "فرق تسد" .

<u>عود على بدء:</u>

الغالب من جماعة القرآنيين هو موافقة عامة المسلمين في صيام شهر رمضان ، لكن شذ عنهم الخواجة أحمد الدين ، والسيد محمد رفيع الدين ، فيرى الخواجة أحمد الدين : أن المقصود هو **صيام أي شهر من شهور السنة دون التقيد برمضان ، ويرى محمد رفيع الدين أنه يجب أن يصوم الناس ثلاثين يوما بالشهر الشمسي ، لأنه لا يختلف من سنة إلى أخرى ، فرمضان يبتدئ من اثنين وعشرين أكتوبر وينتهي بعشرين نوفمبر . ، وانضم لهذه القافلة الضالة السيد مقبول أحمد ، والخواجة عباد الله أختر فهم يريان :"أن الصيام المفروض على المسلمين وفق روح القرآن تبدأ بالحادي والعشرين من رمضان وتنهتي بصباح يوم العيد ، لقوله تعالى :"أياما معدوات " ".**

ها أنت قد رأيت أخي القارئ كيف أنهم ينكرون معلوما من الدين بالضرورة ، ومسلمات لا يمكن لأحد أن يشكك فيها ، لكن لما كان تفسير القرآن على هواهم وليس بمرجعية علمية ترجع لفهم الصحابة ، وتفسير الرسول – صلى الله عليه وسلم - ، فضلوا ضلالا بعيدا . والكلام من حمقه لا يحتاج إلى رد حتى أنه لا يرتقي لمستوى الشبهة .

فأنت ترى أنهم يخالفون حتى القرآن الذي حجتهم المنفردة ، وليس عندهم حجة غيرها ، فشهر رمضان شهري قمري معروف عند العرب ، فلماذا نختار أياما أخرى ؟ .

القرآن واضح حيث قال :"شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " ، لكن يجعلونه هُم شهرا آخر ، أو على رأي أحدهم عشرة أيام فقط ، على الرغم من عود الضمير في قوله "فليصمه" واضحة جدا أنها تعود على " شهر ".

لكن النقطة المهمة والتي اتفق فيها القرآنيون هي قولهم أن المرأة في رمضان ، تصوم وتصلي حتى وإن كانت في الحيض والنفاس ، واستدلالهم في ذلك أن لا يوجد دليل على ذلك في القرآن ، وهذا يرجعنا إلى الأصل ، وهو إنكار السنة ومن هنا نعرف كيف أن الفرقة الضالة تهدم الدين بإنكارها لسنة الرسول – صلى الله عليه سلم - .

وقد أجمع العلماء على أن الحائض لا تصوم ولا تصلي واستندوا في ذلك إلى قول عائشة رضي الله عنها

قال ابن حزم رحمه الله في مراتب الإجماع، ص40 :
"وأجمعوا أَن الْحَائِض تقضي مَا أفطرت فِي حَيْضهَا.

وَأَجْمعُوا وَأجْمع من يَقُول على أَن الْحَائِض لَا تَصُوم أَن النُّفَسَاء لَا تَصُوم" انتهى.

وقال ابن المنذر في كتابه "الإجماع"، ص42: " وأجمعوا على أن الحائض لا صلاة عليها في أيام حيضتها، فليس عليها القضاء.

وأجمعوا على أن عليها قضاء الصوم الذي تفطره في أيام حيضتها في شهر رمضان" انتهى.

وقال ابن القطان في "الإقناع في مسائل الإجماع" (1/ 103:(

"وامتناع الصلاة والصيام والطواف والوطء في الفرج، في حال الحيض: بإجماع متيقن، بلا خلاف بين أحد من أهل الإسلام فيه، (إلا قومًا) من (الأزارقة)، وحقهم ألا يُعدوا في أهل الإسلام.

وأجمع أهل العلم على أن قضاء ما تركت من الصلاة في أيام حيضتها غير واجب عليها.

وأجمعوا على أن عليها قضاء ما تركت من الصوم في أيام حيضتها."

وقال في (1/ 230): "واتفقوا أن الحائض لا تصوم، واختلفوا في المستحاضة تصوم أم لا" انتهى.

فأهل العلم متفقون على أن الحائض ممنوعة من الصوم والصلاة، وأنها تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة.

وأما التشكيك في ذلك بالنظر إلى أن القضاء يأتي بمعنى الأداء، فلا قيمة له، فإن الإجماع يقطع الاحتمال.

ثم هذا الاحتمال مردود بالسنة الصريحة أيضا:

فقد روى البخاري (1951) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ، فَذَلِكَ نُقْصَانُ دِينِهَا.(

وهذا صريح في أن الحائض لا تصوم، كما أنها لا تصلي.

انظر أخي الحبيب كيف أنَّ إنكار السنة يهدم الدين ويضيع الملة ،

إذا كانت المرأة تصلي وتصوم وهي حيض لأنه ليس هناك دليل في القرآن ، فأين الدليل من القرآن على أن صلاة الظهر أربع ركعات ، والفجر ركعتان ، وأين الدليل على مقادير الزكاة في القرآن ، وأين الدليل من القرآن على شروط النكاح ،

وغيرها من الأحكام الشرعية الكثيرة والتي بإنكارها يضيع الإنسانُ دينَه .

ولم يقف عندهم على ذلك فقط فهم ينكرون :

1-كفارة من جامع نهار رمضان .
2-قضاء من أفطر يوما من رمضان والذي في قوله تعالى :"وعلى الذين يطيقونه".
وذلك من أجل إنكارهم بالسنة وعدم اعتدادهم بها .

وهناك كثير من الإلزامات لمنكري السنة ستأتي في مقالات قادمة

إن شاء اللّٰه .


العدد
9
مجلة شذرات ثقافية
أيتها الشعوب
كونى كمريم فى تقديس القيم
الأستاذ : عدوم لخضر

أيتها الشعوب كوني كمريم في تقديس القيم

يُثبت لي النظر إلى واقع الشعوب العربية وتفاعلاتها مع الحياة أنها لم ترق بعد إلى تقديس القيم الكلية كقيمة العدل مثلا، لتصبح بالنسبة لها غذاء معنويا لا يمكن الاستغناء عنه تماما كالغذاء الحسي من ماء وهواء بانتفائهما تنتفي الحياة وينعدم الكون ، فالشعوب العربية الآن لا يمكنها أن تصبر إن أوقفوا عنها الخبز والشراب في حين أنها لا تعير اهتماما إن عُدمت قيمة العدل في القضايا الرئيسة وغُيبت في المجالات المهمة، لذلك أجدني دائما أؤكد أن هذه الثورات التي نلحظها كان من أسبابها الرئيسة انعدام الضروريات المعيشية من مأكل ومشرب ومسكن، وربما لو لبيت لما ثارت الشعوب وخرجت تجوب الأزقة والشوارع ،ولم تكن –ابتداء– لتفعيل القيم الكلية على مستوى جميع الأصعدة (سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية)،ودعني أدلل لك على الذي ذكرت بالشعب الإمراتي؛ فحاكمهم يستبد ليل نهار، وينتهك حرمة الدين والأخلاق بكرة وأصيلا ،ويطعن الأمة الإسلامية من خلفها في كل حين ،إلا أنه قد سدّ لهم كل ضروريات الحياة بل والكماليات كذلك، فهل سمعت يوما أن الشعب الإمراتي قام فخرج عليه في مسيرة مليونية كالتي شاهدناها في ميدان التحرير ،مطالبين إياه بتدارك الوضع والمبادرة إلى عملية إصلاحية على مستوى شؤون الحكم ومقتضياته تُجسّد فيها القيم الكلية ، الجواب :لا ، لأن الشعب الإمراتي* لم يرق بعد لتقديس تلك القيم الكلية ومنها العدل ذلك التقديس الذي يجعل الحياة تنعدم بانعدامها ،،، ولعل في قصة مريم عليها السلام وقولها (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) إشارة إلى هذا التقديس الذي غاب عن الشعوب العربية ولم تصل إليه بعد ، فمريم ههنا إرتقت بقيمة الحياء إلى درجة لا يمكن الاستغناء عنها، وآثرت الموت على الحياة إن هي سُلبت منها ،لظنها – وأخطأ ظنُها – أن هذا الموقف الذي وُضعت فيه سيجردها من هذه القيمة المقدسة في أعين الناس فبدر منها ذلك القول (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) فالموت أهون عندي أن يراني الناس بغير هذه القيمة !

فما أحوج الشعوب المقهورة إلى استلهام هذا المعنى القيمي العظيم الجليل والسعي إلى التحقق به في واقعها .

***الأسباب التي تحول دون ارتقاء الشعوب لهذه المنزلة**

يمكننا أن نذكر سببين رئيسين حالا دون تحقق هذا المطلب العظيم ؛

أولهما : نقص الجانب الفلسفي التنظري لهذه القيم وطريقة طرحها على الشعوب زد على ذلك ندرة التحدث عنها والتعرض لها في المحاضن المعرفية كالجامعات والثانويات والمتوسطات والمعاهد والمساجد ، وعدم ترسيخها لدى الطفل في الطور الابتدائي الذي يعد أهم طور معرفي تسلكه الناشئة ،، والاكتفاء بالتعرض للقيم الشائعة (كالصدق والوفاء والتبسم والصدقة والإحسان وغيرها...) لنكرس بهذا الفعل لمظلومية صارخة على مستوى التعاطي مع موضوعات القيم ،فنسلط الضوء على جانب من القيم دون غيره ونهمل الأولويات القيمية

ثانيا : تمحورات الشعوب العربية حول ضروريات الحياة والبحث عن السبل الممكنة لتلبيتها ،الأمر الذي يحول دون إقبال الشعوب العربية على دراسة مثل هذه الموضوعات، فلا يستقيم عقلا أن ننتظر من شعب شأنه كهذا أن يتعرض لموضوع القيم وفلسفتها بالبحث والتنقيب والتفتيش وهو لا يزال غارقا في مشاكل الخبز والماءو السكن....خذ لهذا مثلا ؛ أنك أقبلت يوما على بنّاء أنهكه البناء ومعاركة الجدران وعوائق استقامتها واعوجاجها لتلقي على مسامعه الكلام الآتي :

أنه ينبغي علينا أيها البنّاء أن نقدس قيمة العدل ولا نرضى بالعيش من دونها فهي عندنا بمنزلة الماء والهواء بانتفائهما تنتفي حياتنا وحياة الأمة أجمع،، لكان جوابه: (أغرب عن وجهي أيها المتفلسف وإلا جَبهتُك (بماسيطة)

هذان هما السببان الرئيسان اللذان قعدا بالشعوب العربية عن الارتقاء إلى درجة تقديس القيم الكلية ذلك التقديس الذي أوضحناه ،وحل هذه المعضلة مرهون بانتفائهما جميعا وهذا شرط مهم

لأن انتفاء واحد دون الآخر لن يغني ذلك شيئا..فلو تحقق للشعوب الاكتفاء في جانب الضرورات المعيشية وغاب عنها التاصيل الفلسفي لهذه القيم لوقعت في النموذج الإمارتي ، وإن كان عكس ذلك؛ وحُررت هذه القيم وأُصلت فلسفيا إلا أن هذا التأصيل جاء في بيئة يسودها مناخ الفقر والفاقة وانعدام الضروريات لم تلتفت إليها الشعوب لأنها في شغل من أمرها !

زبدة القول أن على الشعوب العربية أن تراجع نفسها على المستوى القيمي وتسعى للنهوض بنفسها قبل فوات الأوان ،مستلهمة في ذلك معاني القرآن العظيم ودلائله الهادية إلى أقوم السبل....

*** أكيد بدون تعميم**